إقرأ

٤ كتب و ٤ كتاب

محمد بدر الدين خليل

دار المعارف بمصر

ج ٦

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر

محمد بدر الدين خليل
محمود حيمان

٤ كتب و ٤ كتاب

اقرأ ٢٩٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٩٨ – أكتوبر ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

مقدمة

عندما يصادف القارئ كتاباً ينجح فى الاستيلاء على حواسه ، ويملك عليه نفسه ، فإنه كثيراً ما يجد نفسه منساقاً إلى التساؤل عن علاقة الكاتب بالكتاب :

* هل ينقل الكاتب خلال ما يكتب لقطات من حياته الخاصة ؟

* وهل ينعكس تأثر الكاتب ببيئته ، وبالوسط الذى يعيش فيه ، وبالظروف المحيطة به ، على ما يسيل به قلمه ؟

* وهل يقتصر هذا — إذا صح — على نوع من الكتب دون سواه ؟

هذه الأسئلة — وكثير مثلها — خالجنى وأنا أقرأ عدداً من الكتب التى تبلى جدتها ، والتى استطاعت بقوة مادتها أن تصارع عنكبوت النسيان ، وتغالب إهمال القدم ، وتجتذب القراء جيلا بعد جيل . . ومع أن طبيعة العمل تقتضى أن أقرأ باستمرار ، وأن أتلقف أكبر عدد من الكتب التى يصدرها المطابع فى الخارج ، فإننى لا ألبث — بين الحين والحين — أن أجدنى مشوقاً إلى العودة إلى تلك الكتب « الكلاسيكية » بالذات ، أقرأها من جديد دون أن يساورنى أقل ملل أو سأم . .

ولا أحسبنى فريداً فى هذا ، فإن للأدب « الكلاسيكى » تأثيراً حبيباً على النفوس ، برغم تعدد المدارس الأدبية فى عصرنا الحالى ، وله سحر لا يمكن أن تنال منه الأيام . . والذين ارتادوا شطآنه ونهلوا من معينه ، لا يملكون أن يشعروا — فى بعض الفترات — بحنين إليه ، لا سيما حين يثقل على نفوسهم وعقولهم مادية الحياة الحاضرة ، وما يخالط الواقع من

انفعالات القلق وعدم الاستقرار . . وهى ظواهر استشرت فى كافة أرجاء العالم ، وأوحت إلى الناس أن ينشدوا — فى فراغهم — منافذ للهرب من واقعهم . . وإليها يعزى ظهور موسيقى « الجاز » ، والرقصات العنيفة ، والقصص الجنسية المثيرة ، والإغراب الذى يبدو فى كتابات بعض الأدباء من أمثال « تنيسى وليامز » — فى أمريكا — و« جان بول سارتر » — فى فرنسا — وجماعة أدب «اللامعقول» ، وفن «السيريالزم» فى كل بلد .

ومن تلك الكتب التى لا تلبث تشدنى إليها بين الحين والآخر ، أربعة كانت أكثرها إلحاحاً على فكرى ، فدفعتنى إلى أن أنقب فى حياة مؤلفيها بحثاً عما يكون قد انعكس على الكتب من حياة الكتاب أو بيئتهم وظروفهم .

وكان كتاب « كوخ العم توم » فى مقدمة هذه الكتب . . وقد هدانى البحث إلى وجود أكبر من علاقة بين أحداث الكتاب وأحداث حياة مؤلفته « هارييت بيتشر ستو » . . بل إن الإمعان فى البحث انتهى بى إلى اكتشاف أن « العم توم » — بطل القصة — كان صورة لأصل عاش فى أمريكا وعانى كل ما عاناه البطل من قسوة البيض وطغيانهم على السود . . ولكنه لم يمت تحت وطأة الألم كما مات « العم توم » ، وإنما عاش ليساهم فى تحرير بنى جلدته ، وفى مساعدتهم على التخلص من ربقة الاستعباد . . واستطاع أن يفرض شخصيته وأن يضطر البيض — بل كبار البيض — إلى احترامه . .

أما الكتاب الثانى فهو : « هى » ، أو « عائشة » للسير « هـ . رايدر هجارد » . وهو الكتاب الذى أعتبره خير جناح يركبه القارئ إذا أمضه الواقع المادى ، وضجت الحياة الحاضرة ، ليرقى إلى أجواز الخيال . . وفى هذا الكتاب أيضاً ، يلمس القارئ الباحث مدى انعكاس ظروف العهد الذى كان الكاتب يعيش فيه . . عهد ارتياد القارة الأفريقية ، والكشف عن مناطقها المائية ، وفى مقدمتها منابع النيل . . وإذا عرفنا أن الرحالة

من أمثال « ستانلى » و « بيرتون » و « سبيك » التقوا فى جوف أفريقيا بعرب يعيشون فى المجاهل ، استطعنا أن نتبين من أين استمد « هجارد » الوحى الذى جعله ينسج قصته بين قوم من العرب فى جوف القارة . .

والكتاب الثالث : « غادة الكاميليا » — قصة كتبها « ألكسندر دوماس » الابن سنة ١٨٤٨ . . وهى أبرز مثال على انعكاس حياة الكاتب على كتابه . فهى ليست مجرد قصة تعالج الموضوع القائل بأن الحب الشريف الصادق يطهر الغانية اللعوب من آثامها ويردها إلى الفضيلة ، وينظف روحها . . حتى عندما تشاء الظروف لحسدها أن يبقى مدنساً . .

لم تكن « غادة الكاميليا » مجرد قصة ذات موضوع رفيع . وتمتاز بتحليل رائع للنفس البشرية . . وإنما هى من مصادر سيرة مؤلفها ، إذ تضمنت صوراً صحيحة ، حقيقية ، من إحدى مراحل حبه ، كما سيتبين القارئ بوضوح . .

وأخيراً . . اخترت لك قصة « كارمن » — لبروسبير ميريميه — لتكون رابع الكتب . . وفيها حشد «ميريميه» طائفة من المعلومات الدقيقة . عن الحياة كما رآها فى إسبانيا ، ورسم فيها صوراً لتجارب مرت به فى زياراته لها . .

وهكذا تجيب الكتب الأربعة عن الأسئلة التى بدأت بها هذه المقدمة ، وتشهد بأن نفس الكاتب أشبه بالمرآة تنعكس عليها صور ما يحيط به . . وأن الكتاب — فى كثير من الأحيان — مرآة أخرى ، تلتقط عن الأولى بعض اللمحات ، إن لم تكن كل الصورة المنعكسة عليها .

وهكذا — عن كل كتاب ، ثلاثة أحاديث متشابكة ، ممتزجة : حديث عن موضوع الكتاب ، وحديث عن الكاتب ، وحديث عن مصادر وحيه واستقبال القراء للكتاب . .

ولعلى بهذا أكون قد قدمت لك على هذه الصفحات غذاء شهيًّا ممتعاً .

محمد بدر الدين خليل

١

إذا كان قد قدر لكتاب واحد أن ينفجر كبركان يغير معالم شعب بأسره ، فهذا الكتاب هو « كوخ العم توم » ، الذى كتبته زوجة ، وربة بيت ، وأم لسبعة أولاد ، منذ ١١٥ عاماً . .

فقد استطاع هذا الكتاب أن يوقظ الضمير الإنسانى فى أمريكا ، وأن يؤدى إلى حرب صهرت ولايات الشمال والجنوب — فى أمريكا الشمالية — وصبتها فى قالب الدولة التى نراها قائمة اليوم . . وما تزال آثاره ممتدة إلى أيامنا هذه . . بل يكاد مصرع الرئيس « جون كيندى » ، فى غمرة جهاده من أجل قانون « الحقوق المدنية » ، وتحقيق المساواة الكاملة الحقيقية . بين البيض والزنوج فى أمريكا ، يعتبر من بعض آثاره . .

ولو أتيح لى أن أشترك برأى فى اختيار الكتب لطلبة المدارس الثانوية فى كل دولة أفريقية — بل فى كل دولة من دول العالم عامة — لوضعت « كوخ العم توم » فى رأس القائمة . .

كوخ العم توم

هاريت بيتشر ستو

بالرغم من مرور مائة عام وخمسة عشر على صدور هذا الكتاب ، وبرغم ظهور كتاب أكثر ثقافة وأبلغ أسلوباً من مؤلفته ، فإن أحداً لم يستطع أن يوفق قدراً ما وفقته « هاريت بيتشر ستو » فى تصوير مأساة الزنوج فى الدولة التى تزعم أنها حاملة لواء الحرية والمنافحة عنها . .

ولو أن الاتحاد السوفييتى أراد أن ينظم حملة تثير الرأى العام العالمى ضد الولايات المتحدة — فى ميدان الحرب الباردة — لما استطاعت أشد حملاته أن تهز قلوب البشر كما هزتها قصة « كوخ العم توم » . . فإن مؤلفتها — المرأة التى كانت نكرة ، تحمل من المهام العائلية كأم لسبعة أطفال ما يكفى للاستئثار بكل نشاطها وكل تفكيرها وكل عواطفها — استطاعت وهى التى لم تلم بفن الدعاية كما نعرفه فى أيامنا ، أن تطلق دعاية قوية لا تكاد تعادلها قوة فى تاريخ الدعايات الفردية . . بل الحكومية . وما كان يؤازرها فى عملها سوى قلب نبيل مفعم بالأحاسيس المرهفة والشعور الناضج بالإنسانية . . ولا كان يعضدها سوى قلم أهبه الإيمان بعدالة ما كتب . . وبهذا القلم وذاك القلب ، سجلت « هاريت » حدثاً خالداً فى تاريخ الأدب ، وأشعلت نار حرب غيرت وجه التاريخ . . فما كان من المنتظر للولايات المتحدة — لو أنها ظلت مقصورة على القسم الشمالى منها — أن تبلغ ما بلغته اليوم من قوة ونفوذ . . ونقصد بهذا الحرب على الاسترقاق والاتجار فى الآدميين ، التى تطورت إلى ما عرف فى تاريخ أمريكا باسم « الحرب الأهلية » .

* * *

يروى عن « أبراهام لينكولن » أنه حين رأى « مسز ستو » للمرة الأولى ، لم يتمالك أن هتف : « أفهذه السيدة الصغيرة ، هى التى خلقت هذه الحرب الكبيرة ؟ »

ذلك لأن « هارييت بيتشر ستو » كانت قلة فى الجسم . . وكانت فى الثانية والأربعين من العمر ، وأمًّا لسبعة أولاد ، حين شرعت فى كتابة قصة « العم توم » . .

وما خطر للسيدة — إذ ذاك — أن قصتها ستزج أمريكا زجًّا ، بل كانت كل غايتها من هذه المأساة ، أن تهز قلوب أهل الولايات الجنوبية فى أمريكا ، عسى أن يقتنعوا يوماً بأن طبيعة السلام والعدالة تقتضى المساواة التامة بين جميع العناصر ، لا فرق بين أبيض وأسود . . ولكن الأقدار كانت تريد بقصتها أكثر مما أرادت ، فكان «الله يهدى القلم ويسيره» — على حد تعبيرها — ليسوق إنذاراً بأحداث لاتزال تتطور حتى اليوم .. ويذهب بعض زعماء الزنوج فى أمريكا اليوم ، إلى أنها قد تفضى إلى حرب أهلية . .

ولعل أعجب ما فى الأمر ، أن « مسز ستو » لم تكن قد تلقت من الثقافة ما يؤهلها لأن تكتب بهذا الأسلوب الذى صاغت به قصتها . . فقد كانت ابنة قس واعظ ، ينتمى لأسرة عريقة فى « نيو إنجلند » . وقد استغرق فى دراسته للدين والمجتمع ، حتى عرف كيف يمزج بين الاثنين . وما أقل من يوفق من رجال الدين إلى دراسة الدنيا تحت أضواء الدين ، وإلى اللجوء إلى الدين فى إصلاح الدنيا . وقد ورث عنه أبناؤه رسالته ، فلم يلبث ابنه الأكبر « هنرى وارد بيتشر » أن صار مصلحاً كبيراً فى قومه ، ثم تجاوز نطاق الإقليم الذى نشأ فيه ، فإذا به من زعماء حركة محاربة اقتناء العبيد . وقد ذهب فى تحمسه إلى درجة العنف ، حتى لقد صاح من فوق منبر الوعظ : « أن تقوم حرب ، أفضل عشرة آلاف مرة من أن يبقى الاستعباد » !

وورثت « هاريت » بدورها نصيباً من روح أبيها ورسالته وتعاليمه ، وإن ظلت تفاعلاتها تعتمل وتحتدم فى أعماقها فى صمت ، ولم تتكشف على حقيقتها العنيفة فى العقود الأربعة الأولى من عمر « هاريت » . بل إن المؤلفة قضت طفولة هادئة ، وشباباً مطمئناً . . واشتغلت بالتدريس عشر سنوات فى « نيو إنجلند » وفى مدينة « سنسيناتى » فى فجر قيامها ، حتى إذا بلغت الخامسة والعشرين — فى سنة ١٨٣٦ — زوّجت من عالم بدين الجسم ، من تلامذة أبيها ، يدعى « كالفين ستو » . .

وحتى ذلك الوقت ، لم تبد عليها معالم مواهب فذة .. وإن كانت قد أظهرت ميلا إلى التأليف والأدب ، فوضعت كتاباً للجغرافيا يلائم عقلية تلاميذها الصغار ، وكتبت عدداً من القصص القصيرة التى لم تكن تبشر بنبوغ أو شهرة . .

وقضت بعد زواجها خمسة عشر عاماً ، انصرفت خلالها إلى شئونها المنزلية والعائلية ، وأنجبت سبعة أطفال . . حتى إذا بلغت الأربعين من عمرها ، عاودت الكتابة والتأليف ، لتكسب ما يساعد على تربية الأولاد .. وكانت هذه العودة تمهيداً لظهور ذلك الحدث الأدبى الضخم ، الذى سلكه « تولستوى » بين الكتب التى اعتبرها أعظم نتاج للذهن البشرى . .

* * *

ولم تك « هاريت » على معرفة واسعة ، دقيقة ، بالولايات الجنوبية لأمريكا الشمالية . . بل تمثل كل تعرفها عليها فى رحلة قصيرة قامت بها إلى « كينوكى » قبل أن تكتب قصة « العم توم » بعشرين سنة . . وإلى المعلومات التى جمعتها خلال هذه الرحلة ، أضافت خلاصة ما نمى إليها عن قصص فرار العبيد من طغيان السادة البيض ، وإحاطتها بإطار من تعاليم « الأب هنسون » . . وكان واعظاً زنجياً ، أنشأ مستعمرة للعبيد الهاربين فى كندا . . ومن الطريف أنه كان « النموذج » الذى صاغت

« هاريت » شخصية « العم توم » على غراره ، كما اعترفت فى كتابها ؛ « شرح كوخ العم توم » .. الكتاب الذى أصدرته للرد على حملات النقاد على قصتها ، وللبرهنة على أن سطح الأرض حمل أمثالا للعم توم فعلا . .

بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن « جوزياه هنسون » كان الشخصية الحقيقية الحية ، التى انعكس ظلها على شخصية « العم توم » . . ومع أنه مات منذ خمس وثمانين سنة — وقد تجاوز التسعين من عمره — إلا أن ظله خلده فى أذهان كل جنس وكل عنصر وكل لون فى العالم ، على مر الأجيال . .

* * *

وإذن ، فللعم توم أصل حقيقى من لحم ودم . . أصل رأى أضواء الحياة لأول مرة فى مساكن العبيد فى إحدى مزارع « ماريلاند » ومن ثم كانت تلك الأضواء معتمة ، كئيبة ، تتوارى خلف غيوم العبودية والذلة . . فلقد ولد عبداً ، إذ كان أبواه من الرقيق . فكان بالتبعية ملكاً لمالكيهما لا لهما . . حتى اسمه لم يختره له أبواه ، بل اختاره له السادة المالكون ! . .

وكما حدث للعم توم فى القصة ، لم يلبث « جوزياه » أن حظى — وهو يدرج مع الحياة وينمو — بثقة سادته ، وبحب أولئك الذين كانوا يعملون فى مزارع السادة . ولكن هذا لم يحل دون أن ينال حظه من قسوة سادته البيض وصلفهم ، فكان يضرب فى قسوة وحشية ، وكان يسب ويحقر ويلقى كل ألوان العنت والإرهاق ، مثله مثل إخوانه الزنوج . . ولكن هذه الحياة الخشنة ، المهينة ، لم تؤثر فى نفسه ، ولم تثقل روحه بالنقمة على السموات والأرض والقدر والحظ ، ولم تدنس قلبه بالكراهية والبغضاء . . بل نشأ ساذج النفس ، طيب القلب ، تقيًّا شديد الإيمان بالله . .

* * *

وكانت حياة « جوزياه هنسون » قصة من أروع القصص . . قصة سجلها بقلمه فى كتاب أسماه « الحقيقة أغرب من الخيال » . . وقد بدأت هذه القصة فى سنة ١٧٨٩ عندما ولد . . وفى « ماريلاند » حيث تفتحت عيناه على الحياة الدنيا . وحيث نما و بلغ مرحلة الفتوة . . وككل عبد ، لم ير مذ ولد سوى حياة العبودية ، نشأ مشغوفاً بأن يبز أقرانه فى كل شيء ، حتى يستجلب على نفسه رضاء السادة البيض . . ولكن السيد الأكبر « إيزاك رايلى » لم يفطن إلى وجود « جوزياه » . إلا يو م كشف الفتى أن مراقب الزراعة الأبيض كان يسرق أموال السيد ويخون الأمانة . ففصل المراقب وعين « جوزياه » فى مكانه . . وكان هذا شرفاً عظيماً بالنسبة لعبد لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . .

ومع أنه أثبت جدراته للثقة التى وضعت فيه ، وأهليته للمسئولية التى عهد إليه بها ، إلا أنه ظل فى نظر السيد « رايلى » مجرد . . عبد رقيق ، ملك يديه ، يفعل به ما يشاء دون أن يحاسبه أحد . . لذلك لم يتورع عن ضربه بالعصاعلى رأسه حتى شجه وأسال الدم منه دافقاً . يو مفاجأه ممسكاً بكتاب للمطالعة والهجاء ، يتعلم منه أصول الكتابة والقراءة . . فقد بدا ميل العبد للتعلم « جريمة » فى نظر السيد الأبيض . وضاعف من « بشاعة » هذه « الجريمة » أن العبد أباح لنفسه أن يقتطف بعض التفاح من بستان السيد ، فيبيعه ليشترى الكتاب !

وكان « رايلى » مقامراً ، سكيراً ، فكان من المهام التى ألقاها على « جوزياه » ، أن يرافقه كلما ذهب إلى « الحانة » ليدفع عنه الأذى إذا ما تشاحن مع أحد فى أوقات سكره . . وفى سبيل السيد الأبيض ، اعتدى « جوزياه » يوماً على مراقب فى مزرعة مجاورة يدعى « برايس ليتون » . فما كان من هذا إلا أن تربص له مع ثلاثة من العبيد ، وظلوا يضربونه حتى كسروا عظام إحدى كتفيه ، فظل « جوزياه » حتى نهاية

عمره لا يستطيع أن يحرك ذراعه اليسرى . .

* * *

وكانت له خدمات للسيد الأبيض فاقت كل هذا . . فعندما قضى فى مراقبة مزرعة السيد ثمانية عشر عاماً، عهد إليه « رايلى » بمهمة جليلة. إذ كان السيد الأبيض قد غرق فى الديون بفضل مسلكه السيئ ، حتى لم يعد فى وسعه أن يتفادى بيع جزء من أملاكه . . ولما كان يضن بعبيده أن يباعوا بين ما رأى أن ينزل عنه ، فقد وكل إلى « جوزياه » مهمة قيادتهم فى الخلاء ، وعبر حدود الولاية ، إلى مزرعة لأخ له فى «كينتوكى».. ومن ثم ساق الفتى « القطيع » — وكان مؤلفاً من ثلاثة وعشرين عبداً ، بينهم أهله — فلم يفكر فى أن يستغل الفرصة ليتحرر ويحررهم معه . . بل إن ولاءه للسيد الأبيض ، واحترامه للأمانة المعلقة فى عنقه ، حملاه على أن يرفض ما اقترحه عليه بعضهم من أن يعبر بهم نهر « أوهيو » إلى منطقة حرة لم تكن يدا « رايلى » تصلان إليهم فيها . .

وفى مزرعة« آموس رايلى » فى « كينتوكى» ، اضطلع « جوزياه » بعين مهمته السابقة عند « إيزاك رايلى » . .. مهمة مراقبة المزرعة . وفى تلك الأثناء ، أتيحت له الفرص كى ينصت إلى الوعظ الدينى . . ومع أن معرفته بالدين كانت بسيطة ، إلا أن الإيمان سرعان ما توطد فى أعماقه ، فاستوعب تعاليم الدين ، وغدا واعظاً للزنوج فى المزارع المجاورة .. ولم تأت سنة ١٨٢٨ حتى اعترفت به الكنيسة الأسقفية النظامية واعظاً » .

ولكن الغيوم كانت تتجمع حول مصير رقيق « إيزاك رايلى » . . السيد الأول فلم يلبث أن أوعز إلى أخيه بأن يبيعهم جميعاً ، اللهم إلا « جوزياه » وأهله . . ولكم حز فى نفس العبد الشاب أن يرى زملاءه يباعون كالنعاج ، وأن يرى عائلاتهم تنفرط وتتشتت بين السادة البيض ، فيباع الأب لسيد ، والأم لسيد ثان ، والطفل لسيد ثالث ، دون مراعاة

للروابط العائلية . . أقدس الروابط ، كما توصى تعاليم الدين !

* * *

وعندما سيق العبيد بعد بيعهم ، تعالت أصواتهم بغناء حزين :

حين كنت فى أرض مصر . . وفى رحاب النهر . .

سمعت شخصاً يبشر بأرض الميعاد . . فى رحاب النهر . .

وكأنما أرسلت الأقدار هذه الأغنية على ألسنة العبيد لتذكر «جوزياه» بأنه كان قادراً على تحريرهم من الذل والهوان والتشتت يوماً ، حين عرضوا عليه أن يعبر بهم نهر « أوهيو » ، فراح الندم يوقد فى قلبه ناراً متأججة ، رأى على ضوئها رسالته الجديدة فى الحياة . . إذ كان هذا الحادث كفيلا بأن ينبهه إلى أنه وأسرته مسوقون — فى النهاية — إلى المصير نفسه ، فعقد العزم على أن يتحرر ويحررهم معه . .

وأوحت إليه تقواه وإيمانه ، أن السبيل للحرية هى أن يشتريها من السيد « إيزاك » بالمال يدخره ويجمعه . . ومن ثم عمد إلى إغراء شقيق سيده ، حتى منحه جوازاً للسفر إلى « ماريلاند » والعودة منها . . وفى الطريق اتصل الشاب الزنجى بجماعات من بنى عنصره ، عطفت عليه إذ عرفت بعزمه ، فراحت تعد له المنابر للوعظ أينما حل ، وتجمع له المال ، حتى بلغ ما جمعه مائة دولار . . وهو مبلغ كاف يفوق أعلى ثمن لأغلى عبد ! ! . . ولكن « جوزياه » لم يشأ أن يقنع بهذا المبلغ ، بل ابتاع ببعضه جواداً وثوباً متواضعاً ، وانطلق نحو الشرق ، يواصل وعظه وتبشيره بالدين وجمع التبرعات ، حتى بلغ ما جمعه مائتين وخمسة وسبعين دولاراً .

* * *

ونميت أنباء « جوزياه » إلى مولاه حين وصل إلى « ماريلاند » فى النهاية . . وغاظ « إيزاك » من عبده أنه أحس أخيراً بالكرامة والحاجة إلى الحرية ، لذلك تعنت فى مفاوضته ، وتشبث بأن لا يحله من العبودية

إلا لقاء ثلاثمائة وخمسين دولاراً تدفع نقداً، على أن يتبعها بعد حين بمائة أخرى ! . . وقبل « جوزياه » . وراح يسعى دائباً حتى جمع المبلغ . ولكنه لم يكد يدفعه إلى « إيزاك » . حتى تبين أن السيد الأبيض كان ينتوى التغرير به وخداعه . إذ زعم أنه إنما اتفق معه على خمسمائة وخمسين دولاراً . . وما كان القانون ليصدق العبد ويكذب مولاه ! ! . . ومن ثم عاد الزنجى الشاب إلى « كينتوكى » كما بارحها . . عبداً مستذلا ! . .

ولكنه لم يكد يستقر . حتى تبين أن سيده وشقيقه قد قررا أن يبيعاه.. ولكى ينفذا رغبتهما . تظاهرا بإيفاده إلى حوض « المسيسيبى » مع ابن « آموس » لبيع المحصول . . غير أن « جوزياه » عرف أنه إنما كان يستدرج إلى « نيو أورليانز » ليعرض فى سوق النخاسة ! . .

وتولاه يأس قاتل . حتى لقد طغى الغل والسخيمة على تقواه وإيمانه ، فقطن إلى نفسه ليلة وقد رفع فأساً وهم أن يهوى بها على ابن « آموس » وهو نائم . . لولا أن تذكر الله والدين . فجر قدميه مبتعداً وهو كسيف.

وفعلاً وصلا إلى « نيو أورليانز » . حيث صارح الشاب الأبيض صاحبه الأسود بأنه كان مكلفاً ببيعه . . ولكن حادثاً وقع فقلب الخطة المدبرة رأساً على عقب . إذ أصيب الشاب الأبيض بحمى قاسية . زاد من وطأتها أنه كان فى غربة بعيداً عن الأهل ، فراح فى أساه يستأنس بالعبد المغدور ، ويمسك بيده فى غمرة الألم ، ويهتف به باكياً : « لا تدعنى ! » . .

ونسى « جوزياه » الغدر فى عمره الغريزة الإنسانية التى فطر عليها . فلم يهجر الشاب — وكان فى مكنته أن ينتهز الفرصة للفرار — بل عكف على تمريضه والسهر عليه فى إخلاص وولاء لم يشفعا له عند والد الشاب وعمه ، فقد ظلا على عزمهما ، ومضيا يدبران خطة جديدة . .

* * *

وهنا ، انهارت كل مقاومة فى نفس « جوزياه » فعوّل على الفرار بزوجته وأطفالهما الأربعة . . وكان من الأطفال صغيران لا يقويان على المشى ، فحملهما فى كيس على ظهره . .

وانطلقت الأسرة الهاربة فى مساء أحد أيام سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، لائذة بأكناف الظلام ، حتى قطعت خمسة أميال ، بلغت بعدها شاطئ « أوهيو » ، حيث كان زميل لجوزياه من العبيد فى الانتظار ، فساعد الأسرة على اجتياز النهر والوصول إلى ولاية « أنديانا » . . وكان الهاربون يلوذون فى النهار بالغابات ، ويسرون بالليل ، حتى بلغوا « سنسيناتى » بعد أسبوعين . . وما إن حصلوا على بعض حاجتهم من القوت ، حتى استعانوا ببعض الأصدقاء على الوصول إلى ضفاف بحيرة « إيرى » ، وقد برح العناء بهم ، وتسلخ ظهر « جوزياه » من احتكاك الكيس — الذى حمل فيه طفليه — ببشرته ، وتورمت قدما زوجته وبلغ بها الإعياء أن كانت تهيب به أن يدعها خلفه ويواصل الفرار . .

وعند البحيرة ، أشفق عليهم ربان أسكتلندى رحيم . فأقلهم فى سفينته إلى الشاطئ المقابل . . وإذ بلغوا « بفلو » منح الربان « جوزياه » مالاً يفى بنفقات الركوب إلى كندا . . فما إن اجتازوا الحدود ، حتى ركعوا يعفرون جباههم بترابها ، ويسقون أرضها بدموعهم ، ويحمدون الله أن منحهم الحرية جزاء تقواهم وإيمانهم . .

* * *

وبدأ « جوزياه » حياته الجديدة وهو خالى الوفاض إلا من إيمان قوى عتيد . . فسرعان ما أثبت أنه كان أهلا للحرية ، وراح يعمل دائباً ، جاهداً ، حتى أنشأ مستعمرة للعبيد الهاربين ، وعكف يكتب سيرة حياته وجهاده . .

وما كان لينسى الوعظ والتبشير فى هذه الأثناء ، بل راح يطوف

بأرجاء كندا ونيو إنجلند ، يدعو للدين ، ويستحث الضمائر الحية أن تهب لمكافحة النخاسة والاستعباد . . واستطاع أن يصل إلى إنجلترا إبان المهرجان والمعرض اللذين أقيما فى سنة ١٨٥١ ، مصطحباً نخبة من أبناء مستعمرته يعرضهم ليدلل على أن الزنوج آدميون وبشر كالبيض سواء بسواء ، ويصرخ ليوقظ الضمير العالمى . .

* * *

ولكن . . معذرة ، فإن الحديث عن « كوخ العم توم » استدرجنا إلى تلخيص كتاب « الحقيقة أغرب من الخيال » . . وهو إن بعد بنا عن الكتاب الذى بدأنا به ، فإنه لم يخرج بنا عن نطاقه ، فهو الأصل الذى استلهمته « مسز ستو » قصتها . . ولا بأس من أن كسب القارئ كتابين تحت عنوان كتاب واحد . .

لنعد إذن إلى حديثنا الأول . .

لم تك « هاريت بيتشر ستو » على معرفة واسعة ، دقيقة ، بالولايات الجنوبية ، ولا بمحنة العبيد ، وآلام الزنوج ، حتى قدر لها يوماً أن تلتقى بجوزياه فى إحدى الجولات التبشيرية التى كان يقوم بها فى « كندا » و« نيو إنجلند » . . وفى هذا اللقاء ، روى لها قصته ، فانطبعت فى نفسها بما خالطها من ذلة ومهانة ، وعناء وشقاء ، وعنت وإرهاق ، وآلام وأحزان ، وعزيمة وكفاح . .

ومع أن الأحداث مست شغاف قلبها ، إلا أنها لم تحدث تفاعلا عنيفاً فى الحال ، بل ظلت تتغلغل فى بطء إلى أعمق أعماقها ، ثم راحت تنضج وتغلى على مهل . .

ذلك أن حركة تحرير العبيد ومقاومة النخاسة ، لم تبدأ فى الولايات الشمالية إلا حوالى سنة ١٨٣٠ ، وكانت بطيئة فلم يتسع انتشارها حتى

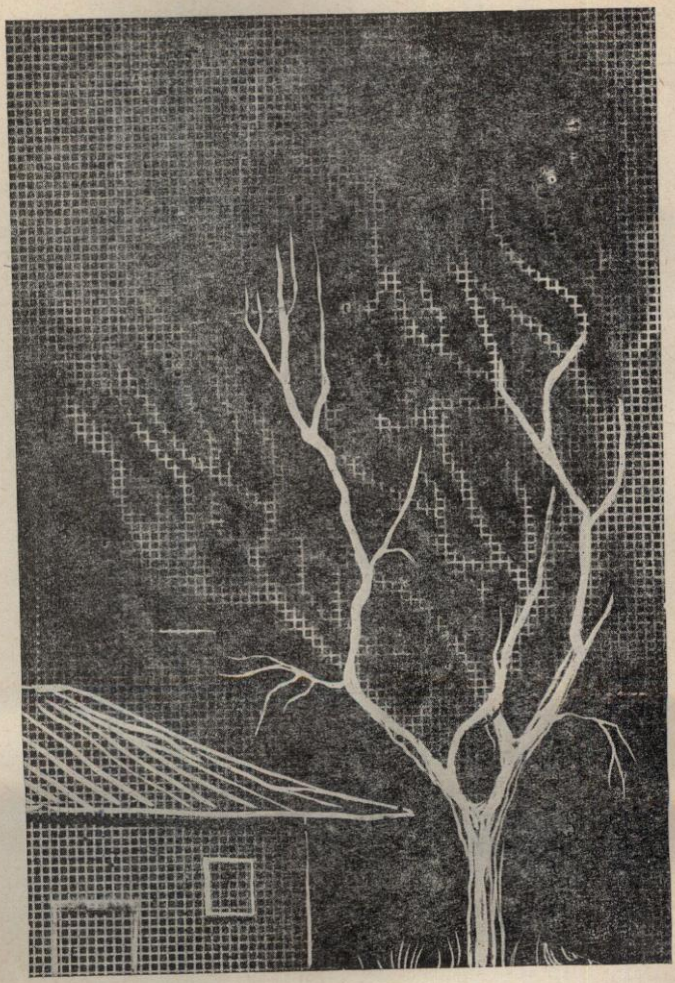

سنة ١٨٥٠ . . على أن الولايات الجنوبية تملكها الخوف ، كالشقى الذى أذنب وأدرك ذنبه فهو يعيش خائفاً متوجساً أن تحل به عواقبه . واشتد هذا الخوف حين كثرت حوادث هروب العبيد ، حتى انقلب إلى نوع من الهوس . . وكلما انتشرت دعوة التحرير فى الشمال ، زاد هذا الهوس حدة فى الجنوب . . حتى صدر قانون العبيد الهاربين — فى سنة ١٨٥٠ — يحرم على أهل الشمال مساعدة أولئك التعساء . فكان هذا القانون الوقود الذى أذكى حركة المطالبة بإلغاء الرق والتخاسة . .

وفى العام نفسه ، انضمت « مسز ستو » إلى الحركة بكل عواطفها ، وساهمت فيها بحماس . .

وكتبت لها زوجة شقيقها « إدوارد » تقول :

« لو كنت أملك قلماً كقلمك ، لكتبت شيئاً يكشف للشعب كله عن مدى نقمة الاستعباد والرق » .. فإذا هذه العبارة هى الشرارة التى أضرمت إلهام « هاريت » وعجلت بتفاعل العوامل التى كانت مكتومة فى أعماقها فراحت تقرأ رسالة زوجة أخيها المرة تلو المرة ، وهى تقول : « لسوف أكتب شيئاً فذاً ، لو قدر لعمرى أن يطول » .

* * *

وفى أحد أيام فبراير سنة ١٨٥١ ، كانت تجلس فى كنيسة البلدة شاردة ، ساهمة ، تداعب ذهنها فكرة لم تستطع فى البداية أن تستبينها . وفجأة ، رسم لها الخيال منظراً . بل لعل الأبخرة المتصاعدة من تفاعل العوامل المكبوتة فى نفسها هى التى راحت تتجمع أمام عينيها لترسم ذلك المنظر . . منظر أحد مراقبى المزارع البيض ، يأمر بجلد عبد اشتعل رأسه شيباً ، وطفحت أساريره بمظاهر التقوى والطيبة . . ويتلقى العبد لهيب السياط بصبر لم يزد الطاغية الأبيض إلا طغياناً ، فتظل السياط

تهوى على العبد المسكين حتى يموت ، وعلى شفتيه أدعية مخلصة إلى الله أن يغفر لقاتله ! . .

وقفزت « هاريت » من مكانها ، وانطلقت مهرعة إلى دارها ، فأرسلت قلمها يرسم المنظر بعبارات قوية ، خالعة اسم « العم توم » على الزنجى ، و « سيمون ليجرى » على جلاده الأبيض . . ولكن القصة بدت صغيرة ، قصيرة ، لا تصلح للنشر . . فراحت تصب عليها من شعورها المتأجج ، وإن هى إلا أسابيع ، حتى واتاها الإلهام دافقاً ، فضت تكتب الرواية التى كانت قنبلة ظل دويها يردد خلال الأجيال . .

وكتبت « هاريت » إلى رئيس تحرير مجلة « العهد القومى » — « ذى ناشينال إيرا » . التى اعتادت أن تنشر لها بعض الصور القلمية التى كانت تنتجها — تنبئه بأنها تؤلف قصة ضد النخاسة وامتلاك العبيد ، قد يستغرق نشرها ثلاثة أعداد أو أربعة . فواتاها الرد سريعاً ، متضمناً عرضاً سخيًّا من رئيس التحرير . . ثلاثمائة دولار للقصة !

ولكن الحلقات الثلاث أو الأربع — كما قدرت — امتدت إلى أربعين . . وحان شهر سبتمبر و « هاريت » لا تزال منغمسة فى الكتابة ، وقد خيل إليها أنها أوشكت أن تنتهى ، فإذا هى لم تتجاوز أكثر من ثلث القصة . . وكما عبرت بنفسها ، لم تكن هى الكاتبة ، بل إن عنان القلم أفلت من يدها ، ومضت العناية الإلهية تسوقه وتهديه . .

* * *

وطبعت قصة « كوخ العم توم » ككتاب فى مارس سنة ١٨٥٢ ، فاستغرقت مجلدين . . وإن هى إلا أسابيع ثلاثة حتى كان عدد ما بيع منها : ٢٠,٠٠٠ نسخة ، وحان شهر يونيو والقصة فى عنفوان رواجها ، تباع منها ١٠٠٠ نسخة فى كل أسبوع . .

وفى ذلك الشهر ، بدأت الضجة تحيط بالقصة ، إذ انطلقت

الصحف تناقش الصور التى رسمها قلم « مسز ستو » . بين مكذبة ومصدقة . . فراحت صحف الجنوب تستهجن ما أوردت المؤلفة وتكذبها فى عنف وحدة . . فى حين انبرت صحف الشمال تدافع عن الكاتبة وتعزز ما خطه قلمها عن حال العبيد المنكودين . . وامتلأت أرفف المكتبات بفيض من الكتب المؤيدة ، وفيض من الكتب المنكرة المكذبة . . وثار سادة الجنوب لكرامتهم ، فحرم على المكتبات بيع « كوخ العم توم » ، وحرم على القراء اقتناؤها ، وكان الويل فى ارتقاب من يحملها ، وكان الطرد والتشريد نصيب من يروج لها أو يبيعها . .

ومع ذلك ، فلم يحن شهر أكتوبر من ذلك العام ، حتى كان عدد ما بيع منها ١٠٠,٠٠٠ نسخة ، وعدد اللغات التى ترجمت إليها اثنتا عشرة لغة . . وعدد الطبعات التى استباح الناشرون فى الخارج — لا سيما فى إنجلترا — حق إصدارها دون إذن من المؤلفة ، عشرين طبعة . . وكانت تنشر على حلقات متسلسلة فى ست من صحف باريس فى وقت واحد . . دون أن تفيد « مسز ستو » من كل ذلك ماديًا ، إذ لم يكن ثمة قانون إذ ذاك لصون حقوق التأليف . .

ولقد وصفت الأديبة الفرنسية الخالدة « جورج صاند » مؤلفتنا بأنها عبقرية نابغة . وقرأ الزعيم السياسى البريطانى « لورد بالمرستون » قصة « كوخ العم توم » ثلاث مرات ، وكان المأثور عنه أنه لم يقرأ قصة واحدة من ثلاثين سنة قبلها . . ونشطت نساء إنجلترا ، فأعددن نداء لنساء أمريكا يهين فيه أن يحاربن الرق ، ووقعته ٥٠٠,٠٠٠ امرأة . .

وما إن اكتمل عام على ظهور القصة ، حتى كان عدد النسخ التى بيعت منها — بمختلف اللغات — ٢,٥٠٠,٠٠٠ . . وسجل اسم « هاريت بيتشر ستو » بين الخالدين فى تاريخ الأدب العالمى . .

* * *

أما وقد ألممنا بملخص للأصل الحقيقى الذى سجله « جوزياه هنسون » عن نفسه . . فلنر كيف كان الظل الذى أظهرته « مسز ستو » . .

كان « العم توم » عبداً تقيًّا ، يعيش فى ولاية « كينتوكى » هانئاً بين زوجته « كلو » وأسرته العديد أفرادها . . راضياً بالعبودية فى ظلال سيد رحيم يدعى « شيلبى » ؛ كان واسع القلب ، دمث الطباع ، محبوباً لدى عبيده . .

ولكن هذه السعادة لم تدم ؛ إذ اضطر « شيلبى » إلى أن يعرض « توم » للبيع ، سداداً لدين أثقله . . ولكن النخاس « هالى » لم يقنع بالعبد العجوز ؛ فطلب معه صبياً ؛ كان ابناً لجارية زوجة السيد . . ولم يجد « شيلبى » مفرًّا من النزول عن الصبى وهو كاره ؛ آسف إذ يفرق بين « إليزا » — الجارية — وابنها . . ولكن « هالى » راح يخفف من أسفه قائلا ليغريه :

— إن الزنوج ليسوا كالبيض ، بل هم سرعان ما يتغلبون على شجونهم . .

وإذ أفضى السيد بالنبأ إلى زوجته ؛ تلقته بفيض من الاحتجاج والاستنكار . . وشاء القدر أن تسمع « إليزا » حديثهما ، فعوّلت على الفرار بطفلها ؛ ولم تبخل على « توم » ، فأنذرته بمصيره . ولكن العبد كان وفيًّا مخلصاً ؛ فأبى أن يفر قائلاً :

— ما خنت يوماً الثقة التى أودعها فىّ سيدى ، وما كنت لأخونها اليوم . . أو فى أى يوم !

وكانت « إليزا » زوجاً لعبد مخلط — من سيد أبيض ومحظية سوداء — يملكه سيد ضيعة أخرى . ولعل « مسز ستو » اختارت له هذا المنبت كى تجعل منه رمزاً للزنجى المتنور المستقل فى تفكيره . . فقد أمضّه يوماً تعسف سيده ، ففر منه . . حتى إذا عثر عليه ، أعير لمصنع لعمل الأكياس ،

فما لبث أن أظهر نبوغه بأن اخترع آلة لتنظيف المادة التى يصنع منها « الخيش » . . وكان جزاؤه أن خشى السيد أن يرتفع العبد فوق مستوى الرقيق ، فرده إلى العمل فى الزراعة ، وراح يسومه الخسف ، ويشهر عليه أدنأ سلاح . . إذ كان يهدده بأن يقسره على الزواج من جارية أخرى غير « إليزا » زوجته . . فما لبث « جورج هاريس » — كما كان اسمه — أن تمرد ، وصارح زوجته بعزمه على الفرار ، وهو يقول :

— ما جدوى محاولتنا أن نعمل شيئاً ، أو نتعلم شيئاً . أو نصير شيئاً يذكر . . فيم حياتنا وله؟ . . لكم أتمنى لو أننى كنت ميتاً . . سيدى؟ ! . من ذا الذى أقامه سيداً علىّ ؟ . . إننى لا أفتأ أفكر فى هذا . أى حق له علىّ ؟ . . إننى بشر مثله ، سواء بسواء ، بل أنا خير منه . . إننى أعرف عن عمله فوق ما يعرف ، وإننى لكفء لأن أدير العمل خيراً مما يديره . . بل إننى لأتقن القراءة أكثر مما يتقنها ، وإن خطى فى الكتابة لأجمل من خطه . . فقد علمت نفسى بنفسى ، ولا فضل له علىّ . . بل إننى تعلمت على الرغم منه !

وفر « جورج » . . واحتملت « إليزا » فراقه صابرة . . فلما أحاق بها السوء ، وعولت على الفرار ، عزمت على أن تحمل ابنها وتسير حتى تبلغ النهر فى أقصى الشمال ، فتتخذ طريقها عبره إلى « كندا » ، حيث يلتئم شملها و « جورج » . .

وإذ يفتضح أمر فرارها فى الصباح التالى ، تثور ثائرة النخاس « هالى » وينطلق فى أثرها . ولكن العبيد الآخرين يبذلون قصارى وسعهم فى عرقلته وتأخيره ، حتى إذا لحق بها — وفى معيته العبدان العجوزان « سام » و « آندى » — كانت قد بلغت نهر « أوهيو » وقد بدأ الجليد الذى يكسو سطحه فى الذوبان . . ومعنى ذلك أن اجتياز النهر غدا فى عداد المغامرات الانتحارية ، ولكن الاستماتة فى الفرار تدفع « إليزا »

إلى أن تستهين بالخطر ، فيروح تقفز من كتلة إلى أخرى من كتل الجليد و « هالى » وعوناه واقفون لا يجدون حيلة ، حتى تبلغ الضفة الأخرى ، وتطمئن . . إلى حين !

ويعبر عليها عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ، كان له جهد كبير فى سن قانون تحريم مساعدة الزنوج الهاربين . . ولكنه لا يكاد يلم بقصتها حتى يذوب قلبه إشفاقاً ، فيقودها فى منتصف الليل إلى صديق له من العصبة التى تعمل فى الخفاء على تهريب العبيد إلى حيث الحرية . .

* * *

فى تلك الأثناء ، كان « جورج هاريس » ممعناً فى الترحال ، وقد تنكر فى هيئة سيد من الزنوج ، فصبغ شعره ، وصبغ بشرته السمراء الباهتة حتى غدا زنجياً داكن السواد . .

وفى أحد الفنادق الصغيرة ، يجلس إلى ثلة يتناقشون حول الإعلان الذى أذاعه سيده عن فراره ، ووعد فيه من يأتى به حياً أو ميتاً بمكافأة سخية ، قدرها أربعمائة دولار ، فيستولى « جورج » على ناصية الحديث فى هدوء ورزانة دون أن يعرف جلساؤه حقيقته . . ولكنه لا يلبث أن يلتقى بصاحب المصنع الذى كان معاراً لخدمته ، فينبئه هذا بأنه يخرق قوانين بلاده ، ولكن جورج يصيح فيه :

— بلادى ؟ ! . . ليس لى من وطن سوى القبر الذى سيضم رفاتى ! . .

ويقسم ليكافحن حتى الموت ، ولا يسلم نفسه ليباع إلا وهو جثة هامدة . .

ويلتقى «جورج» بزوجته « إليزا » فى إحدى مستعمرات « الكويكرز » الذين كرسوا جهودهم لعون العبيد الهاربين . . ولكن « هالى » كان فى تلك الأثناء قد أطلق فى أثرها بعض المطاردين المهرة ، فلا يلبث الزوجان أن يدافعا عن نفسيهما وطفلهما بمساعدة أحد جماعة « الكويكرز » ، ثم

يواصلان ترحالهما متنكرين ، حتى يصلا إلى أرض الحرية . . فى كندا .

* * *

وكانت ضيعة « شيلبي » فى تلك الأثناء مسرحاً لأحداث مؤثرة . . فقد ودع « توم » أهله ورفاقه بعد أن باعه سيده . وبين فيض الدموع ، ينطلق « توم » مع « هالى » . . ويمر فى طريقه بسوق عقدت للمزايدة فى أسعار عبيد تباع ، فتذوب نفسه حرارة . . ويشحن مع بعض الرقيق الذين ابتاعهم « هالى » فى مركب حملهم على نهر « المسيسيبى » ، وحمل معهم شحنات من القطن . .

ويعكف « توم » خلال الرحلة على قراءة التوراة ، لا يشغله عنها إلا التفكير فى زوجته والحنين إلى أطفاله . وإيناس فتاة بيضاء صغيرة السن كانت فى طريقها إلى « نيو أورليانز » ، حيث يقيم أبوها ، الذى كان يملك ضيعة صغيرة . .

تلك كانت « إيفا سانت كلير » التى تعلقت بها قلوب العبيد الذين شحنوا فى المركب ، فكانت « الأصوات الأجشة تتصاعد ألف مرة فى اليوم تباركها . . وكانت بسماتها تومض على وجوه المحرومين المتعوسين إذ تمر بهم » . و« كان لها وجه جذّاب لا ينسى ، لا لجماله ، وإنما لسماه التى تفرد بها ، والتى كانت نفحة من إخلاص ونقاء حانين . . »

وكثيراً ما كانت الصغيرة الطاهرة تطوف بالعبيد المصفدين بالأغلال ، تداعبهم وتوزع عليهم الحلوى والفاكهة . .

وكان القدر يرسم خطة ليعزز علاقة « توم » بالصبية الصغيرة . فقد كادت تغرق ذات يوم ، فألقى « توم » بنفسه إلى النهر ، وكافح حتى أنقذها ، مما دعا أبوها « أوجستين سانت كلير » إلى أن يبتاعه من « هالى » فينقله إلى مزارعه ، وهو فى طريقه إلى « فيرمونت » ليسعى لدى ابنة عم له تدعى « أوفيليا » كى تتولى شئون داره ورعاية صغيرته « إيفا » . .

إذ كانت زوجته أنانية ، كارهة لواجباتها العائلية . .

* * *

وبدأ « توم » حياة جديدة فى ضيعة « سانت كلير » ، فقد منحه السيد ثقته ، كما استطاع أن يكسب احترام عبيد الضيعة . . وبعد أن كان علمه مقصوراً على القراءة — وقراءة التوراة فحسب — توفرت « إيفا » على تلقينه الكتابة أيضاً . .

وانضمت « أوفيليا » إلى أسرة « سانت كلير » . وكان السيد يأنس إليها ، ويجاذبها أطراف الحديث . . وكثيراً ما كان الرق موضوع نقاش بينهما ، فكان السيد يحمل عليه فى اشمئزاز واستنكار . فى حين كانت الآنسة — القادمة من الشمال — تعارضه ، وتذهل لفكرة الاستعباد . . ولعل « مسز ستو » إذ أقحمت هذا التناقض فى قصتها ، رمت إلى إثبات حيادها وعدم تحيزها . . وكثيراً ما كان « سانت كلير » يعرض بالآثار السيئة للاسترقاق ، إذ يقضى على القيم الأخلاقية لدى صغار السادة البيض وصغار العبيد السود على السواء . . وكان يحمل على القسوة التى يعامل بها البيض الزنوج ، وما لها من أثر إذ « تعمل تدريجياً على تقسية قلوب الطرفين ، فيزداد السادة قسوة ، ويزداد العبيد كراهية لهم وبغضاً . . فهكذا الجلد والسباب ، كالمخدر ، يضطر المرء إلى مضاعفة الجرعة كلما ازداد له إدماناً » . .

ويبدو « سانت كلير » معجباً بتقوى « توم » وصلاحه ، ويعطف ابنته وبرها . . ولكنه لا يطمئن إلى نتيجة التعاليم التى كان يبثها فى نفس « أوفيليا » ، فيستدرجها كى تعلم فتاة زنجية متمردة مفسودة اسمها « توبسى » ، ابتاعها لينقذها من سيد فظ القلب معدوم الإنسانية . .

* * *

وما أروع خيال « هاريت ستو » إذ صورت أول لقاء للزنجية الصغيرة

بالآنسة « أوفيليا » ، إذ سألتها هذه عن عمرها . فابتسمت قائلة فى إنجليزية مهشمة . شأن الزنوج :

ـ لست أدرى يا سيدتى . .

ـ ألا تعرفين عمرك ؟ . . ألم ينبئك أحد ؟ . . فمن كانت أمك إذن ؟

ـ لم تكن لى أم قط . .

ـ لم تكن لك أم ؟ ! . . ماذا تعنين ؟ . . فكيف ولدت ؟

قالت الزنجية الفتاة وهى سادرة فى ابتسامها :

ـ لم أولد أبداً . .

ـ ألم تسمعى عن الله يا « توبسى » ؟

فتطلعت إليها الفتاة حائرة ، والابتسامة لا تبرح شفتيها اللتين انفرجتا عن أسنان ناصعة البياض . . وإذ ذاك مضت « أوفيليا » تسائلها :

ـ ألا تعرفين من الذى خلقك ؟

ـ لا أحد . . فيما أعلم . .

وبدت عليها أمارات العجب والتفكير ، ثم أومضت عيناها وقالت :

ـ أظننى نموت كالنبات . . وما أعتقد أن أحداً صنعنى !

وتلقت « توبسى » جهود « أوفيليا » فى توجس ونفور فى بداية الأمر . فما اعتادت من قبل أن تلقى عطفاً وحناناً . ولا هى آمنت بوجود شىء منهما . .

* * *

فى تلك الأثناء ، تبدت على « إيفا » علائم الخزال والذبول ، وتملكها وهم طاغ جبار ، أوحى إليها أنها تسير حثيثاً إلى الموت . . وكان « توم » هو الأنيس الذى لازم فراش مرضها يواسيها ويسرى عنها . وبينما كان يترنم ذات مساء بنشيد دينى عن موكب للأرواح ، ليبعث الطمأنينة فى نفسها ، هتفت :

— إنى ذاهبة إلى هناك يا عم « توم » . .
— إلى أين يا آنسة « إيفا » ؟

فنهضت الصغيرة وأشارت بيدها النحيلة الواهنة نحو السماء . . وعكس شفق الغروب وهجه القرمزى على شعرها الذهبى ، وعلى وجهها ، فبدت وجنتاها متضرجتين بتألق سماوى . . وعلقت عيناها بالسماء ، وهتفت :

— سأرقى إلى هناك . . إلى الأرواح المشرقة يا « توم » . . سأذهب فى القريب . .

ولا يجد « سانت كلير » خيراً من أن يوطن نفسه على تحمل النكبة المرتقبة . . ويمضى فى الحدب عليها والاستجابة لرغباتها ، حتى ليعدها بأن يطلق سراح « توم » ويهبه حريته ، ويكرس حياته لمحاربة الرق ، إذا ماتت . . وهو بذلك كان يسعى لإرضائها .

ويزداد الأثر الروحى لإيفا ، حتى إنها تفلح فى إصلاح نفس « توبسى » فى الوقت الذى يئست فيه « أوفيليا » منها ، وأوشكت أن تنفض يديها من هدايتها . . وما أروع منظر « إيفا » وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تحاول أن تقنع « توبسى » بأنها تحبها فى إخلاص وصدق ، وتهيب بها :

— ما الذى يجعلك مفسودة النفس إلى هذا الحد يا « توبسى » ؟ . . لم لا تحاولين أن تصلحى نفسك وتصبحى طيبة؟ . . أليس فى وسعك أن تحبى أحداً ؟ . .

وتجيبها الزنجية الصغيرة :

— لست أدرى شيئاً عن الحب . . اللهم إلا فيما يتعلق بأننى أحب الحلوى وما إليها . .

وتناديها « إيفا » من أعماق قلبها أن تكون طيبة ، طاهرة النية فتجيبها :

— كيف أكون طيبة ؟ ! . . ما كنت فى أى يوم من الأيام سوى

زنجية . . جارية . إنما أحاول أن أغدو طيبة ، لو أن جلدى سلخ يوماً ، فصرت بيضاء . . ليس ثمة من يحب الزنوج ؛ فليس فى وسع الزنوج أن يحبوا . . وسيان عندى ؛ فلست أعبأ !

وتشرع فى الصفير ، غير مكترثة ؛ فتهتف « إيفا » :

— أواه يا « توبسى » . أيتها الطفلة الشقية . . إننى أحبك !

وتفيض عواطفها ، فتضع يدها فى ترفق على كتف « توبسى » . .

* * *

وفى ليلة مدلهمة ، مشئومة ، ماتت « إيفا » . .

وتتقدم « توبسى » فى صمت وهدوء إلى الفراش الذى سجيت عليه ، وفى يدها شىء أخفته تحت مرولتها . . نصف زهرة ممزقة من زهور الشاى ، جاءت تقدمها . . ولكنها لا تلبث أن تتبين أن الفتاة ماتت فتطلق صرخة مفزوعة ؛ ثم تلقى بنفسها على الأرض باكية ، صائحة :

— أواه ، يا مس « إيفا » ! . . أواه . يا مس « إيفا » ! . . ليتنى أموت أنا الأخرى !

وتمالك « أوفيليا » نفسها ، وكانت منخرطة فى البكاء ، فتقيمها على قدميها ، وتقودها إلى خارج الغرفة ، لتقول لها :

— «توبسى» ، أيتها المنكودة الصغيرة ، لا تقنطى ! .. سأحبك . . بل أنا أحبك ، وسأعينك على أن تصيرى فتاة مسيحية طيبة !

* * *

وقبل أن يفى « سانت كلير » بالوعد الذى قطعه على نفسه لابنته . . فيهب « توم » حريته — يغتال فى نزاع طارئ ، وتباع ضيعته . . وبينما يشفق القدر على « توبسى » فتؤول ملكيتها إلى « أوفيليا » ، نراه يتنكر للعم « توم » ، فإذا زوجة « سانت كلير » الجاحدة ، الجبارة ، المتعنتة فى قسوتها بالعبيد ، تسوقه وزملاء له إلى سوق النخاسة ليباعوا . . وكان الحنين

إلى الحرية قد نما وتشعب فى نفس « توم » ، برغم التقوى التى كانت تحمله على الرضى بما قسم له . . ولقد كان حب «إيفا» له ، وترفق «سانت كلير » به ، يشجعان هذا الحنين ؛ حتى لقد قال يوماً للسيد قبل مقتله :

— إننى لأوثر ألا ألبس سوى أحقر ثوب ، ولا أسكن سوى أزرى بيت ، ولا يكون لى سوى كل حقير زرى ، على أن أكون ملك نفسى . فهذا — فى رأيى — أفضل من أن يكون لى أحسن الأشياء ، فى حين أظل ملكاً لأى مخلوق . . هكذا أشعر يا سيدى ، وأظنها الطبيعة والفطرة اللتين توحيان لى بذلك ! . .

وما غضب « سانت كلير » أو استاء ، وإنما تقبل حديث الفطرة الصريحة فى رضى ، وهو عاقد العزم عن يقين على أن يحقق للعبد المخلص الوفى أمنيته ، وأن يطلق له حريته . . ولكن القدر لم يكن يشاركه عزمه ، فقتل قبل أن ينفذ وعده . . وفرطت أرملته الجاحدة فى العبد الأمين التقى ، فباعته لسيد فظ قد قلبه من صوان ، هو « سيمون ليجرى » . وقد شاءت المؤلفة أن تجعله من أبناء الولايات الشمالية — من « فيرمونت » — إمعاناً فى التظاهر بالحياد . .

* * *

ورأى « ليجرى » أن يجعل من « توم » مراقباً على عبيده ومزارعه . ولكنه آثر أولا أن يقضى على صراحته التى بدت لقسوته لوناً من التمرد ، وأن يقاوم فيه نزوعه إلى الحرية ، وحنينه إلى أن يكون له ما لأى فرد من البشر من حقوق . . .

وكان « ليجرى » رجلا جباراً ، يحكم عبيده بيد من حديد ، وسوط من لهب ، وقانون من إرهاب ، يساعده فى ذلك عبدان زنجيان يدعيان « سامبو » و « كيمبو » ، وسوس إليهما الملق والمداهنة والرياء أن يتنكرا لأبناء جلدتهما وزملائهما فى الرق والعبودية والهوان ، فاستحالا إلى وحشين

ضاربين ، أرهقا زملاءهما طغياناً وجوراً ، حتى لم يعد لعبد فى ربقة « ليجرى » من خلاص إلا بالموت ! . . وما كان اغلى الموت وأعزه وأمنعه تحت رقابة « سامبو » و « كيمبو » وسيدهما العاتى الغشوم ؟

وما إن استقر بتوم المقام فى الذلة الجديدة ، حتى شرع « ليجرى » يسلط عليه ألوان عنته وفظاظته . . بل لقد استعلى حتى قلد فرعون فى موقفه من « موسى » عليه السلام ، فقال له :

— إذا كان لابد من كنيسة تدين لها بالإيمان والطاعة ، فأنا كنيستك . . فلابد لك من أن تكون كما أشاؤك أنا !

ورضى « توم » بما قسم له ، مستسلماً للقدر . . وراح ينفذ أوامر السيد الطاغية ، حتى جاء يوم أمره فيه السيد بأن يسوط جارية عجوزاً . . وثارت روح التقوى وتعاليم الدين والإنسانية على كل ما فطر عليه « توم » من خضوع وخنوع وطاعة ، فأبى ، وتشبث بالرفض . .

وغاظ «ليجرى» من عبده هذا الإباء ، فركله فى غير رحمة ، وصاح :

— ألست مولاك ؟ . . ألم أدفع ألفاً ومائتين من الدولارات عداً ونقداً ، فى هذا الكيان البالى تحت جلدك الأسود القذر؟ . . ألم تصبح بعد ذلك ملك يدى ، جسداً وروحاً ؟ !

* * *

وإذ سمع « توم » وحى الغرور والاستعلاء ، اعتدل فى وقفته منتصباً ، فجأة . ورفع وجهه إلى السماء والدمع يفيض من عينيه ، فيختلط بالدم الذى سال من وجهه إثر الصفعات واللكمات ، وهتف :

— لا ! . . حاشا ، وكلا ! . . إنك لا تملك روحى يا مولاى ! . . إنك لم تبتعها ، وليس فى مكنتك أن تبتاعها ! . . إنما اشتراها ودفع ثمنها الواحد القادر على أن يحتفظ بها . . ولن تستطيع أن تنتزعها منه مهما تؤذينى !

وهاجت هائجة « ليجرى » . . كيف يشرك ذلك العبد الرقيق فى سلطانه أحداً فى ملكيته ، ولو كان ذلك الشريك هو الواحد القهار ، مالك الخلق أجمعين؟ . . وفى عنفوان طغيانه ، أمر بتوم أن يساط . فما أسرع ما أقبل « سامبو » و « كيمبو » على الزنجى العجوز الواهن ، وراحا يجرانه فى عنف ، ثم انطلقا يلهبان جسده بسياط سكبا فيها كل ما اختلط فى نفسيهما من خسة ووحشية ، حتى أحالاه شرائح ممزقة أيما ممزق ! . . ولم يتحول « توم » عن عقيدته . . إن السيد قد اشترى الجسد الفانى حقاً ، ولكنه لا يملك أى سلطان على الروح . فهى لبارئها وخالقها ومبدعها . .

ولم يزده إصراره إلا عذاباً . . ومضت السياط ترتفع فى الجو لتهبط فى أقصى شدة على الجسد المهروء ، حتى أنقذته غانية سمراء — من أب أبيض وأم جارية سوداء — كانت يوماً خليلة للطاغية « ليجرى » ، وكانت ذات سلطان عجيب عليه وعلى عبيده . . تلك هى « كاسى » !

* * *

ورحم « ليجرى » عبده ، لا رهبة من الله ، وإنما إرضاء لخليلته السابقة ، فتغاقل عنه ردحاً . . إلى أن جاء يوم نازعت فيه « كاسى » نوازع الحرية ، ففرت . . وليتها فرت وحيدة ، بل إنها أغرت « إمياين » — خليفتها فى أحضان « ليجرى » — على أن تهرب معها . .

إذ ذاك تملك الطاغية غضب أهوج ، كأنه الإعصار الجامح ، ذهب بكل رشده وبالجذوة الخابية من إنسانيته ، فاستيقظت وحشيته أشد ما تكون عتواً . . وبحث عن منفذ يفثأ فيه غله ، فلم يجد غير « توم » المسكين ، فأمر به أن يساط بلا رحمة . . حتى الموت!

وأقبل « سامبو » و « كيمبو » على مهمتهما غير مشفقين ، حتى تقطعت أنفاسهما . . وأنفاس « توم » !

وفجأة ، حدثت المعجزة ، فقد بهت العبدان المتوحشان من قوة

إيمان « توم » وتعلقه بالله ، فذاب جحودهما ، وألقيا سوطيهما ، وانخرطا فى بكاء أليم ، فإذا دمعهما يغسل آثار الجحود والقسوة عن قلبيهما . . ولأول مرة آمنا بوجود سيد فوق سيدهما ، أعز منه مكانة ، وأحب منه عند عباده ، فانقلبا يستغفران لذنوبهما ! . .

وظل « توم » يومين بلا حراك ، يحتضر . . ولا يفتأ يتمتم داعياً الله بأنفاس متقطعة أن يغفر للطاغية « ليجرى » . . ولعل الموت كان يدرى أن ابن مولى « توم » القديم — « شيلبى » — كان يجوس الأرض بحثاً عن الزنجى الوفى العجوز ليستردّه ويعود به إلى « كينتوكى » ، فأبقى على « توم » حتى عثر عليه « جورج شيلبى » . . عثر عليه فى النزع الأخير ، فركع إلى جواره يبكى فى خشوع وأسى . .

* * *

وكانت آخر كلمات لفظها « توم » مع فلول أنفاسه :

— من . . من . . من ذا الذى يقوى على منعنا عن حب المسيح ؟

وعنى « شيلبى » بدفنه ، ثم تحول إلى « ليجرى » فأوسعه ضرباً حتى طرحه أرضاً انتقاماً للضحية المسكينة ، ثم كر عائداً إلى أهله . .

وكان هذا خليقاً بأن يضع ختاماً رائعاً قوياً للقصة . ولكن « مسز ستو » كانت تؤدى رسالة ، وتهدف إلى غرض . . لذلك لم تقف عند هذه الخاتمة ، بل تجاوزتها لترسم منظراً أخيراً ، لمت فيه شمل العبيد فى ظلال الحرية . . إذ جمعت بين « جورج هاريس » و « إليزا » فى كندا ، حيث استقبلا « كاسى » ، عند وصولها . . ولكى تضفى المؤلفة شيئاً من الوشى يزين المنظر ، افتعلت مفاجأة كشفت عن أن « كاسى » كانت أم « إليزا » . . وانضم إلى الجمع السعيد عضو آخر . . أخت لجورج فرق بينهما الرق ، وظن كل منهما أن لا لقاء بالآخر ، بل لا وجود له . . أما « توبسى » العاصية التى عز على « إيفا » و « أوفيليا » هدايتها وإقناعها

بوجود الله والحب والعدالة ، فقد اقتحمت أضواء الهداية نفسها المغلقة أخيراً ، وعمر قلبها بالإيمان ، وكرست حياتها للتبشير فى أفريقيا . .

• • •

وهكذا انتهت قصة « هاريت بيتشر ستو » بموت « العم توم » ضحية عنت السيد الأبيض . . أما القصة التى سطرها القدر ، قصة « جوزياه هنسون » ، فكانت أرحم وأشفق . . إذ استطاع « جوزياه » أن يفر — كما ذكرنا — وأن يكتب قصة جهاده فى سبيل الحرية ، ويساهم فى مكافحة النخاسة والرق ، وفى الدعوة إلى الله والمحبة والمساواة . .

وعاش ليشهد نجاح دعوته وقضية عنصره . . وعاد من إنجلترا . . بعد معرض سنة ١٨٥١ ، ليجد قصة « العم توم » تخلد ذكره بوصفه الأصل الملهم . . حتى إذا مرت بضع سنوات ، اطمأن فيها إلى زوال النخاسة وتحرر الرقيق ، عاد يزور انجلترا للمرة الثانية ، فاستقبل فيها استقبال الغزاة المظفرين ، وفتحت له الهيئات قاعاتها ليحاضر الناس الذين كانوا يتزاحمون بالمناكب ليقربوا منه ، حتى اضطر المسئولون إلى الاستعانة بالشرطة لصدهم عنه ، رفقاً به وبشيخوخته . . وقبل أن يبارح إنجلترا ، توجت زيارته بدعوة من « الملكة فيكتوريا » التى شاءت أن ترى هذا النبى الزنجى . .

وفى قصر « وندسور كاسل » ، تجمعت عظيمات نساء إنجلترا وسيدات البلاط حول « جوزياه هنسون » يتنافسن للحصول على توقيعه كذكرى . . ومنحته الملكة صورة لها فى إطار من ذهب ، تقديراً له ، وإعجاباً به . .

وعاد العبد السابق ، إلى كندا مثقلا بالهدايا وألقاب الشرف . . على أنه لم يكد يستريح من عناء الرحلة ، حتى حن إلى « ماريلاند » ، موطنه الأول ، ومهد عبوديته وذلته . . فود أن يزورها كحر عظيم ، بعد أن

فر منها كعبد مهين . .

وما كان أبعد « ماريلاند » التى رآها عند عودته ، عن « ماريلاند » التى بارحها خائفاً ، مغبوناً ، مطارداً . . كان الزنوج قد رحلوا عنها إلى الجمهورية التى أنشئت لهم فى أفريقيا الغربية . . إلى « ليبريا » التى غدت موطن حريتهم وسيادتهم . . وكانت الحشائش تنمو فى حقول القمح ، لأن العبيد ذهبوا وحل محلهم عمال يتقاضون أجوراً . ويعملون على قدر أجورهم ، ويشتغلون على هواهم لا قسراً وبدفع السياط . .

ولم يكن باقياً من العهد القديم غير مولاة « هنسون » القديمة . . أرملة « إيزاك رايلى » ، وقد ذهبت السنون ببصرها ، فلم تتعرف عليه إلا بتحسس الندوب التى شقها النخاس فى ذراعه — فى الزمان الغابر — لتكون علامة يعرف بها . .

وما إن استوثقت من أنه عبدها القديم ، حتى هتفت :

— لعمر الحق يا « جوزياه » . . لقد غدوت سيداً ! . .

وفى عزة ويقين ، أجابها :

— لقد كنت دائماً سيداً ! . .

٢

يعيش إنسان العصر الحاضر حياة قاسية ، تفرض ألواناً من التوتر المستمر على أعصابه . فإن طغيان الواقعية المادية يضطره إلى أن يعيش فى صراع مستمر ، وقلق متواصل ، وعدم استقرار يكاد يرافقه فى كل لحظة من يومه . .

لذلك ارتفعت نسبة الانتحار فى المجتمع البشرى . . وازداد إقبال الناس على الخمور والمخدرات وألوان اللهو العنيفة . . واشتدت الاتجاهات المنحرفة والجرائم . . وهذه الظواهر فى مجموعها — كما يكاد علماء النفس يجمعون — أدلة على جنوح إنسان العصر الحاضر إلى الهرب . . إنه يهفو إلى الهرب من واقعه التعس .

من أجل هذا أعتقد أن انقراض القصص الخيالى الكلاسيكى ، جناية على الأدب الحديث . . فقد كان هذا النوع من القصص منفذاً يساعد على الهرب من الواقع المادى ، فيحلق بالقارى فوق الأثقال التى تجثم على نفسه وعلى أعصابه ، ويحرره من الحياة الصاخبة ، المرهقة ، وينقله — محلقاً فى طبقات عليا من الخيال — إلى عالم آخر ، قد يبدو على أضواء التفكير العلمى « غير معقول » و « لا واقعى » . . ولكن ، ما الذى تفعله الخمور والمخدرات واللهو العنيف غير هذا ؟ . . على أن القصص المغرق فى الخيال — كروايات « رايدر هجارد » — مأمون العواقب . . فهو يسرّى ولا يفسد . . وهو يرفه دون أن يزيد الأعصاب توتراً . .

لقد كان هذا اللون من القصص نعمة عدت عليها الواقعية المادية . .

« هى »

السير هنرى رايدر هجارد

من جنايات الانقلاب الصناعى وطغيان الآلة والمادة على حياة البشر أن أحيط خيال الكتاب بإطار حديدى من الواقعية المادية التى تستطيع أن تلمس أثرها بوضوح ، إذا قارنت بين « ألف ليلة وليلة » — مثلا — وبين أى كتاب لأى قصاص حديث ، مثل « هـ . ج . ويلز » ، أو « جورج برنارد شو » . . هنا خيال ، وهناك خيال . . ولكن خيال « ألف ليلة وليلة » تراه متحرراً ، منطلقاً ، يحدثك عن الجن ، وعن السحر ، وعن مغامرات يستحيل أن تقع فى الحقيقة ، ولكنها تأسر ذهن القارئ أثناء القراءة ، فيكاد يتمثلها أمام عينيه ، ويكاد قلبه يخفق مع تطوراتها بعواطف صحيحة . . وهذا الانطلاق فى الخيال ، لا يحول دون أن يستطيع الكاتب الهادف أن يوجه ذهن قارئه إلى هدفه .

ولعل « رايدر هجارد » فطن إلى هذا ، فى الوقت الذى كانت قيود الحياة المادية تشتد حول الخيال ، فى العهد الفيكتورى فى إنجلترا . فرأى أن يبذل جهوده لإيجاد ثغرة بين هذه القيود . . ووفق ، بل كان توفيقه رائعاً ، فاستطاع أن يمزج بين الحقائق التى كشف عنها العلم والارتياد ، وبين الخيال المنسوج من الوهم الخالص . . واستطاع أن يمزج بين الاثنين فى حكمة ، ومقدرة ، وبراعة . . وإنك لتقرأ اليوم « كنوز الملك سليمان » ، أو « هى » أو « ابنة مونتزوما » أو غيرها من القصص التى وضعها ، فتحس بلذة ونشوة . . لذة الانطلاق من الجو الذى ألفته والمعلومات العلمية الجافة التى عرفتها . . ونشوة الانغماس فى جو تدرك أنه مستحيل الوجود ،

ولكنك لا تستطيع أن تصارح نفسك بذلك ، بل تحاول التمويه عليها ، لأنك تجد راحة فى أن ترتاد الآفاق التى ابتدعها الكاتب . .

ومن عجب أن تعرف أن « هجارد » كان — فى الوقت الذى راح يسجل فيه هذا الخيال الوهمى — يعالج مشكلات زراعية تحت أضواء العلم الحديث . . ويترافع فى قضايا من صميم الواقع ! . .

أفترى انشغاله بهذه المسائل المادية الواقعية عكّر صفاء خياله الخالص. أو أن هذا الخيال أظهره فى مظهر الحالم المؤمن بالخرافات ، فأساء إلى حياته العملية ، أو عرضه لاستنكار واستهجان ؟ . . أبداً ! . . وإنك لتلمس الدليل القوى فى الرواج الواسع الذى لقيته رواياته الخيالية التى لا تمت للواقع بصلة . . فلقد تلقف القراء هذه الروايات ، فالتهموها ومضوا يطلبون مزيداً . . ولقد استقبلها النقاد بالرضاء . . رضاء الذى ود الإنكار والرفض ، ولكنه لم يجد نقيصة تدعو إلى الإنكار ، ولا ضعفاً يشجع على الرفض ، وإنما سحر بدوره بهذا اللون من الأدب القصصى ، وشعر بأنه يسد حاجة لدى الناس الذين يريدون أن يرفهوا عن أنفسهم توتر الحياة الحديثة بالفرار من جوها !

* * *

لقد عرض « هجارد » قصة « هى » على « أندرو لانج » ، وهى بعد « بروفات » لم تتم طباعتها ، فكتب إليه « لانج » يقول :

« أوشكت أن أفرغ من قراءة " هى " ، وأرانى مدفوعاً إلى تهنئتك ، فإنى أعتقد أنها من أروع وأدهش ما قرأت فى حياتى . . وكلما لججت فى المستحيل ، تبدت براعتك فى صوغها ، حتى تظهر فى صوغها وكأنها قصة من أدب انساب من كوكب آخر غير كوكبنا الأرضى . وليس فى طوق أن أعبر عن الأثر الذى تركته فى نفسى بأكثر من هذا » . .

ولم يكن الرأى العام أقل من « لانج » تأثراً بالقصة ، وتقديراً لكاتبها . .

فقد ظهرت الطبعة الأولى منها فى سنة ١٨٨٦ ، وهى موضوع رواج وإقبال مما شجع بعض دور النشر الأمريكية ، على أن تسطو على حقوق المؤلف الإنجليزى فى مطلع القرن الحالى ، فتصدر مئات الآلاف من النسخ منها ، دون إذن منه ، أو إشراك له فى الربح !

* * *

ولما كان من حق « رايدر هجارد » علينا أن نلم بشىء عن حياته ومؤهلاته ، فتعالوا نفرغ من هذه الناحية ، ولنسرع ، فإنى أشوق ما أكون إلى أن ألخص لكم هذه القصة الرائعة ، وأن أقرأها معكم للمرة الـ . . كم ؟.. أظنها العشرين منذ أول مرة وقعت فيها عليها فى سنة ١٩٣١ . . فأنا أحج إليها مرة فى كل عام — تقريباً — إذ أجد فيها لوناً من التسرية ، كذلك الذى يشعر به من جرب الخلوات الروحية والترويحية ! . .

* * *

كان « هنرى رايدر هجارد » — حين ولد فى الثانى والعشرين من يونيو سنة ١٨٥٦ — ثامن أولاد سيد ذى جاه ومال ، من أهالى مقاطعة « نورفولك » بإنجلترا . . وقد تلاه شقيقان آخران ، جعلا عدد أولاد السيد عشرة . . وهو عدد لم يكن يبشر بأمل فى نصيب وافر من الرغد والرفاهية لأى واحد من العشرة ، مهما بلغت ثروة أبيهم . . فكانت هذه الحقيقة كفيلة بأن تحفز « رايدر هجارد » على أن ينصرف إلى الدرس بكل ما أوتى ، كى يزود نفسه بسلاح قوى يشق به طريقه فى الحياة .

ولكنه لم يكن فى الواقع متحمساً للدراسة النظامية ، بدليل أن تقاريره المدرسية كانت مبعث هم دائم لوالديه . . فكان أبوه يردد فى قنوط : « إنه لا يصلح إلا لأن يكون بدالا » . . وكانت أمه تمعن فى القسوة ، فتقول : « إنه أثقل من الرصاص جسماً ، وعقلاً ، و . . دماً » !

وأراد أبوه إشفاقاً عليه أن يزج به فى الجيش ليضمن له منصباً ومعاشاً

ولكنه فشل فى اجتياز امتحان الالتحاق ، فكاد أبوه ييأس منه ، لولا أنْ عُينَ جار وصديق له — هو « السير هنرى بولور » — حاكماً لإقليم « ناتال » فى إفريقيا الجنوبية . فسعى الأب المحزون إلى إلحاق ابنه بخدمة الصديق ، كواحد من صغار سكرتيريه . . وظنها فرصة قيضتها له السماء ، حين قبل « السير هنرى » سعيه . فسافر « هنرى » إلى أفريقيا وهو فى التاسعة عشرة من عمره . . سن الأحلام والفتوة .

ويصف « رايدر هجارد » نفسه فى هذه المرحلة — فى كتابه « أيام حياتى » — قائلاً :

« كنت شابًّا فارع الطول ، أزرق العينين ، بنى الشعر ، غض البشرة ، مقبول الشكل . . حتى لقد أطلق علىّ « الزولو » لقب « إنداندا » ، أى الطويل المليح » . .

* * *

وكأنما كان انطلاقه من قيود المدرسة ، ومن طلب العلم بين جدران الفصول ، منشطاً لذكائه ، منعشاً لذهنه ، فإذا به يشعر بشغف صادق لدراسة مشكلات الأهالى ، حتى تفقّه فيها ، مما رشحه لأن يكون بين أعوان المندوب الخاص الذى عين لإدارة شئون « الترنسفال » عند ضمه إلى أملاك الإمبراطورية . . وما إن بلغ الحادية والعشرين من عمره ، حتى غدا من رؤساء المحكمة العليا هناك . .

وعرف الحب فى تلك الأثناء ، ولكنه كان حبًّا فاشلا . وقد دفعته الصدمة إلى أن ينفض غبار أفريقيا الجنوبية عن نعليه ، ويخلف الخدمة عائداً إلى إنجلترا ، حيث عكف على الدراسة حتى فاز بأن صار محامياً . .

وكان زواجه الخطوة الثانية لاستقراره ، فبدأ بعده فى الكتابة والإنتاج الأدبى ، سعياً وراء زيادة دخله .

ولندعه يتحدث عن نفسه فى هذه المرحلة ، إذ يقول :

« فى الفترة الواقعة بين يناير سنة ١٨٨٥ و ١٨ مارس سنة ١٨٨٦ ، كتبت — بيدى ، ودون استعانة بكاتب أو سكرتير — " كنوز الملك سليمان " ، و" ألان كواترمين" ، و " جس " ، و" هى" . . وكنت فى الأثناء نفسها أمارس مهنتى ، فأدرس القضايا وأحضر فى المحاكم ساعات عديدة من كل نهار ، حافلة بالعمل الكثير . كما كنت أتولى بريدى ومراسلاتى بنفسى ، وأضطلع فى الوقت عينه بالمهام التى يضطلع بها كل شاب يعول أسرة ، ويشرف على بعض الأراضى التى آلت إليه ملكيتها ».

* * *

ومعنى هذا أنه كان سريع الإنتاج بدرجة مدهشة ، غير عادية ، لعلها نجمت عن انطلاق المواهب التى كانت مدخرة — دفينة فى أعماقه — قد أثارها المعرفة التى اكتسبها من حياته وعمله ، والأقوام التى رآها ودرس وعاداتها وتقاليدها ومدنياتها القديمة ومشكلاتها الحديثة — فى جنوب أفريقيا — وتجاربه فى المحاماة فى إنجلترا ، والقضايا التى تولاها . .

ولكن هذه الفورة لم تتضاءل فيما بعد ، فهى لم تكن مجرد اندفاع فى عامه الأول ، وإنما كانت موهبة فطرية ظلت قابعة فى أعماقه حتى قدرت لها الظروف التى أظهرتها . . فقد ظل طيلة عمره جم النشاط ، كثير لإنتاج ، عديد ميادين العمل . . وكان قلمه لا يكف عن كتابة القصص الخيالية ، والكتب التى تعالج المشكلات الزراعية . . كما وضع كتاباً أزرق ، من الكتب الرسمية التى تصدرها الحكومة فى المسائل القومية . . وتعددت أسفاره ورحلاته والمناصب التى تولاها ، مما جعله أهلا للتقدير ، فحظى بلقب « سير » فى سنة ١٩١٢ ، وحظى بتقدير رفيع فى أعقاب الحرب العالمية الأولى جزاء ما قدم لبلاده فيها من خدمات . .

وعندما مات — فى ١٤ مايو سنة ١٩٢٥ — كانت لديه ثروة مدخرة من الكتب التى لم يمهله الأجل حتى ينشرها ، فتركها معدة للطباعة . .

ويكفى لتقدير عددها ، أن نذكر أن طبعها ونشرها استغرقا خمس سنوات بعد وفاته . . ومع ذلك ، أتراه كان راضياً عن إنتاجه ؟

الواقع أن رضاءه لم يكن كاملا .. وكان لايحجم عن نقد مؤلفاته فى غير تحيز أو أنانية . . ومما يؤثر عنه أنه كان يقول :

« سواء كان إنتاجى طيباً أو غثًّا ، فإن خير ما عندى فى الخيال والقصة ، يوجد بين العشرة الأولى من الكتب التى وضعتها . . وبالتحديد ، بين « كنوز الملك سليمان » — فى سنة ١٨٨٥ — و « ابنة مونتزوما » . . » وفى نطاق هذا التحديد ، تقع قصة « هى » . . ولعله كان يقصدها ، ولكنه أحجم خشية ألا يوافقه الناشرون أو الرأى العام فى حكمه . . وإن كنا نحن نعتقد — سواء كان هذا قصده فعلا أو لم يكن — أنها خير إنتاجه جميعاً . .

* * *

والآن . . إلى القصة ! . .

من « التاكتيك » الطريف ، أن « هجارد » كان يمهد لخياله الوهمى بمقدمة يصوغها فى قالب الحقيقة ، محاولة منه فى إظهار الخيال بمظهر الواقع . .

لهذا بدأ « هى » بمقدمة طريفة ، زعم فيها أنه التقى يوماً فى كلية بإحدى الجامعات ، بشخصين متناقضين تمام التناقض ، وإن ربط بينهما ود وألفة متينان . . كان أحدهما جميل الوجه — بكل ما فى الجمال من معنى — يتوج رأسه شعر ذهبى فاتن ، وقد أوتى قامة ممشوقة ، فارعة ، فكأنه صورة حية لتمثال « أبولو » اليونانى . . فى حين كان الآخر أقصر منه قامة ، وأكثر سمنة ، قبيح الهيئة ، مشوه السحنة ، قمىء الخلقة ، فكأنه « الغوريلا » . . وإن كانت عيناه تشعان بطيبة ودماثة وخلق ملائكى سمح . .

ومن عجب أن ثانيهما « لودويج هوريس هولى » كان وصيا ورائداً وحاضناً لأولهما « ليوفينسى » ! . . وقد رباه منذ بلغ الخامسة . وكأنما زادت معاشرته لهذا الجمال ، من شعوره بقبح خلقه ، حتى إنه كان يتحاشى النساء ، بل يخافهن ويحرى منهن فراراً . .

وتاق « هجارد » — كما زعم فى القصة — لأن يتعرف بهذين النقيضين . .

وكأنما كان القدر فى انتظار هذه الرغبة كى يسارع لتلبيتها . . وإلا ، فكيف كان « هجارد » يلم بالقصة ويقدمها للقراء ، لو لم يصل إليه يوماً خطاب من « هولى » ، قال فيه :

« قرأت من عهد قريب كتاباً مشوقاً من كتبك ، عن مغامرة فى أواسط أفريقيا ، فأدركت أنه خليط من الحقيقة والخيال . . ولكنه على كل حال قد أوحى إلىّ بفكرة . . إذ أننى والقاصر الذى توليت الوصاية عليه ، أو الذى اتخذته ابناً فى الواقع ، قد اجتزنا أخيراً — كما ترى من الوثائق الخطية والجعران الذى يحمل خاتم « ابن الشمس سليل الملوك » واللوحة الحجرية التى أرفقها بهذا — مغامرة واقعية فى أفريقيا ، ذات روعة تفوق ما كتبت ، حتى إننى لأشعر بتورع ، خشية أن لا تصدق قصتى . . » .

أما هذه القصة فتدور حول ظاهرة خارقة ، لا مثيل لها ، سجلها « هولى » فى الأوراق التى أرفقها بخطابه . .

ومن ثم ينفض « هجارد » يديه من القصة — كما تظاهر — ليدع لهولى فضل روايتها . . وكذلك نفعل إذ نلخصها .

* * *

كان ذلك منذ عشرين عاماً أو تزيد ، وقد جلست فى غرفتى بمساكن الطلبة بجامعة « كمبريدج » ذات ليلة ، أدخن فى عزلة بعد أن فرغت من

دروسى .. فما كان لى من سلوى .. كانت الطبيعة قد دمغتنى بطابع من القبح والدمامة ، حتى لقد كانت النساء يكرهن مجرد رؤيتى . . بل إننى اشمأززت من نفسى يوماً ، وأنا أتأمل صورتى فى المرآة .. ولم يكن لى من عزاء سوى أن الطبيعة عوضتنى عن الجمال عقلا ذكيًّا فذًّا . .

وفجأة ، اقتحم علىّ الغرفة — وقد انتصف الليل — شخص عرفته من سعاله . . وكان ممتقع الوجه ، يرزح تحت ثقل صندوق حديدى ضخم ، ألقاه على الأرض . . ثم انتابته نوبة سعال حادة ، فعرضت عليه أن استدعى طبيباً لعلاجه ، ولكنه قال فى قنوط :

— هراء ! . . لن يجدينى الأطباء ، فأنا أوقن أن ساعتى قد حانت . .

وحز قنوطه فى نفسى . . كان غنيًّا ، ولكن ثراءه لم يسعده ، إذ ماتت زوجته فى مقتبل عمرها وخلفت له ابناً كان إذ ذاك قد بلغ الخامسة من عمره . . ومع أنه كان صديقى الأوحد ، إلا أننى كنت دائماً فى عجب لا أدرى سر إقباله — وقد تجاوز الثلاثين — على دراسة اللغات الشرقية عامة ، والعربية خاصة . .

وقال زائرى منتصف الليل :

— إننى لم أر ابنى منذ مولده ، فقد كان سبباً فى موت أمه . . ولكننى جئت أناشدك أن تقبل ثقتى ، فلست أجد سواك وصيًّا ترعاه . . إن هذا الولد سيكون السليل الأوحد لأسرة من أعرق أسرات العالم . . فإن جدى الخامس والستين كان كاهناً من كهنة « إيزيس » فى مصر ، وكان ينحدر من أصل إغريقى ، وعن هذا الأصل ورث اسم « كاليكراتس » .. أى الجميل القوى ! . . وقبل مولد المسيح بتسع وثلاثين وثلاثمائة سنة — أى فى فترة انهيار آخر بقايا الفراعنة — نكث الكاهن بعهده لإيزيس ، وفر مع أميرة من الأسرة المالكة ، أحبها وأحبته . ولكن سفينته تحطمت على ساحل أفريقيا الشرقى ، ونجا وزوجته ، فظلا يهيمان فى المجاهل ،

حتى انتهى بهما التيه إلى شعب وحشى تحكمه ملكة قوية ، بيضاء ، بارعة الحسن ، لم تلبث — لظروف ستجدها فى الوثائق والمستندات التى فى هذا الصندوق أن قتلت جدى . . ولكن زوجته فرت إلى أثينا ، وفى أحشائها جنين منه ، أسمته — إذ وضعته — « المنتقم الجبار » . . وعلى مر الأجيال ، ظلت سلالة هذا « المنتقم » تتنقل حتى وصلت إلى إنجلترا ، وقد حرّف اسم المنتقم إلى « فينسى » . . وانهى أخيراً عبء المسئولية — التى يحتوى عليها هذا الصندوق — إلىّ ، ولذا أقبلت على دراسة اللغات الشرقية والعربية ، ولكن الأجل لن يمهلنى . . ومن ثم جئت أناشدك أن تقبل الوصاية على ابنى ، وأن تعنى بتعليمه . فإذا بلغ الخامسة والعشرين ، وحان ختام وصايتك ، فافتح هذا الصندوق الحديدى ، ودعه يقرأ محتوياته ، ويقرر ماذا كان يرغب فى الاضطلاع بالمهمة . . فإن لم يقبل ، فأعدم الوثائق التى فى الصندوق . . وسأترك دخلا قدره ألفان ومائتا جنيه فى العام ، نصفه لابنى ، وألف جنيه لك — إذ يجب أن تكرس نفسك لهذه المهمة — ومائة جنيه لسكنى ابنى . . أما الباقى ، فسيدخر حتى يبلغ « ليو » الخامسة والعشرين ، فيكون تحت أمره إن شاء أن يضطلع بالمسألة . . فإذا لم يسعفك الأجل حتى ذاك الحين ، فلتتول وزارة المالية الوصاية على « ليو » . .

* * *

وما زال بى حتى قبلت العبء الخطير ، فغادرنى غير حافل بندائى وتوسلى له كى يقضى ليلته معى . . وفى الصباح التالى ، وجد ميتاً ، ولم يخالجنى الشك فى أنه قضى على حياته بيده . .

ورعيت اليتيم الصغير « ليو » مستعيناً بخادم وفىّ يدعى « جوب » . . وعنيت بتربيته وتعليمه ، وقد جعلت اللغتين العربية واليونانية مادتين أساسيتين فى دراسته العليا . .

ومن عجب أن الملاك الجميل الفاتن ، أحب الوحش الدميم الذى كنته . . ولم نعد نفترق ، حتى أطلق علينا « الجميل والوحش » . .

وإذ بلغ الخامسة والعشرين ، كنت قد مهدت لاطلاعه على ما فى الصندوق ، فما إن فرغنا من تناول الفطور يوم عيد ميلاده ، حتى دعوت « جوب » ليكون شاهداً معنا ، ثم فتحت الصندوق وقد سيطرت اللهفة والانفعال على الشاب . . ووجدنا بداخله صندوقاً ثانياً ، فتحته فإذا فى جوفه صندوق ثالث من الفضة الخالصة ، ملىء بالوثائق ، التى تمثلت فى خطاب من « فينسى » لابنه ، ورق جلدى عليه كتابة بخط « فينسى » توجها عنوان « ترجمة الكتابة اليونانية القديمة التى على الحجر الأثرى » . . ورق جلدى آخر ، عليه ترجمة باللاتينية من عهد بعيد ، وجعران أثرى عليه خاتم « ابن الشمس سليل الملوك » ثم لوحة من حجر عتيق ، حفرت عليها كتابة باليونانية القديمة ، تناثرت عليها توقيعات سلالة « فينسى » على مر الأجيال تشهد باطلاعهم على هذه الكتابة ، وينم بعضها عن أن أصحابها حاولوا الاضطلاع بالمهمة فلم يفلحوا . .

وقرأ « ليو » خطاب أبيه ، فإذا هو اعتراف بأن المسكين انتحر . . وكان فيه :

« على ساحل أفريقيا ، وفى بقعة لم ترتد أو تكشف مجاهلها بعد ، على مسافة إلى شمال مصب نهر « الزمبيزى » فى البحر ، لسان من اليابسة ، يقوم فى طرفه جبل عال ، تتوج قمته صخرة اتخذت شكل رأس زنجى . . ولقد وصلت إلى هذه البقعة ، وعرفت من أحد الأهالى الذين يهيمون فى أرجائها ، أن فى أعماق البلاد المترامية خلف الساحل ، جبال صاغها الطبيعة على شكل كؤوس ، وقوم يعيشون فى كهوف أحيطت بمستنقعات كثيفة لا حد لها ، ويتكلمون إحدى اللهجات العربية ، تحكمهم امرأة بيضاء فاتنة ، لا ترى إلا نادراً ، ولكنها ذات

سلطان طاغ . . ولم تمهل الحمى ذلك الرجل حتى يرشدنى إلى موقع أولئك القوم . . واضطرتنى الظروف إلى أن أعود ، على أمل أن أكرر المحاولة ثانية . . ولكن القدر لم يمكنى » . .

وكانت ترجمة الكتابة اليونانية المنقوشة على الحجر العتيق :

« إنا أمينارتاس — سليلة الفراعنة ملوك مصر ، وزوجة كاليكراتس ، أكتب لابنى " تسيستنيس " — المنتقم الجبار — وقد أشرفت على الموت . . إنى فررت مع أبيك ، وهمنا اثنى عشر شهراً قمريًّا على ساحل أفريقيا المواجه لمشرق الشمس حتى بلغنا نهراً بجواره صخرة على شكل رأس حبشى .. وبعد أن انطلقنا فى النهر أربعة أيام ، تحطم قاربنا ، وغرق رجالنا . . أما أنا وأبوك ، فقد أسرنا رجال غلاظ ، جاسوا بنا المستنقعات ، حتى انتهينا بعد عشرة أيام إلى جبل مجوّف ، على مقربة من أطلال مدينة عفى عليها الزمن . . وكانت ثمة كهوف لا حصر لها . . واقتادنا الرجال إلى ملكة القوم الذين يضعون القدور المحماة على رؤوس الأغراب . وكانت ساحرة ، عليمة بكل الأشياء ، أوتيت سر الحياة ، وجمالا لا ينطفئ تألقه . . فراق لها أبوك ، وهمت بأن تقتلنى لتستأثر به ، لولا أنه كان يحبنى ويخافها ، فعصاها . . ثم صحبتنا فى دروب رهيبة ، مستعينة بسحر قوى ، حتى بلغنا بئراً . . وأرتنا عمود الحياة الذى لا يكف عن الدوران ولا يخبو ، وله هدير كقصف الرعد . . ووقفت فى اللهب ، ثم نفذت إلينا لم يمسها سوء ، بل صارت أشد فتنة وحسناً . . وأقسمت لتجعلن أباك مخلداً مثلها ، وأن مهبه نفسها ، لو أنه ذبحنى ، إذ كان سحر آبائى أقوى من أن تخترقه لتضربنى .. ولكنه غطى عينيه بيديه يحجب جمالها الباهر عن بصره ، وأبى الانصياع .. وفى سورة غضبها ، رمته بسحرها ، فمات .. وإذ ذاك بكت عليه وراحت تندبه . . وأرسلتنى إلى مصب النهر الكبير ، حيث تمر السفن ، فحملتنى الجاريات إلى بلاد بعيدة ، وضعتك فيها — وكنت

جنيناً فى أحشائى — ثم نقلت إلى « أثينا » بعد سنين من التيه والتشرد . . فالآن أناشدك أن تبحث عن المرأة ، واكشف سر الحياة ، وتربص لها حتى تذبحها انتقاماً لأبيك . . فإذا خفت أو أخفقت ، فإنى أعهد بالمهمة إلى كل سلالتى من ذريتك وذرية خلفائك ، حتى يظهر منهم شجاع يستحم باللهب ، ويتبوأ عرش الفراعنة » . .

* * *

وإذا كنا قد أطلنا فى تلخيص الفصول الثلاثة الأولى من القصة ، فإنما أردنا أن نفصل للقارئ الأساس الذى تقوم عليه ، والمحور الذى تدور حوله . . ولنطلعه على لمحات من خيال « هجارد » الذى سما فوق كل شىء مادى واقعى معقول ، وقد راح يحيطه بإطار من الواقعية ليظهره بمظهر الحقيقة . . حتى لقد ابتكر رسماً للحجر الأثرى والكتابة التى نقشت عليه ، وأودع الكتاب صوراً للكتابة اليونانية ، وترجمتها اللاتينية ، وراح يعيد ويزيد فى ترجمتها إلى الإنجليزية ، وكأنما كان يعرض على قرائه مدى تمكنه من اللغات ، ومن حروف الكتابة القديمة ! . .

ولنعد الآن إلى حديث « هولى » . . فقد حال أن يقنع « ليو » بأن القصة خرافة قديمة غير معقولة ، ولكن الشاب كان قد استسلم لسحرها ولروعة المغامرة ، فأصر على أن يؤدى المهمة . . مهمة الانتقام لجده الأكبر ، من الملكة البيضاء ذات القوة الخارقة ، التى قتلته منذ ألفى عام ! . .

ومن ثم تزود بالأدوات والمؤن والأسلحة والذخائر ، وانطلق وفى صحبته « هولى » و « جوب » . . الذى كان عنصر الفكاهة والترويح خلال الرحلة والقصة .

وهنا يبدأ « هجارد » يعرض فى لباقة وبلاغة ، معرفته الواسعة بأفريقيا ، ومجاهلها ، وشعوبها ، والأقوام الغريبة التى تعيش فى أعماقها

متوارية عن أضواء المدنية الحديثة . . مازجاً هذه المعرفة التى لا تقدر قيمتها بأى قياس ، بأحلام الصبا ، وأوهام الشباب ، وخيال الروائى الفذ ، المتمكن من فنه وأسلوبه . .

* * *

أخيراً ، وصل الثلاثة إلى مصب نهر « زمبيزى » ، فى سفينة تولاها ملاحون من أهالى « زنجبار » . . ولكن الأنواء والعواصف لا تلبث أن تنقض على السفينة ، فتدمرها ، ولا تبقى منها إلا على أبطالنا الثلاثة ، ونوتى عربى مسلم اسمه « محمد » ، لم يكف خلال أحلك النكبات عن نداء « الله » والاستغاثة به . . وكأنما شاء القدر أن يظهر كرماً وسخاء فى معاملتهم ، فأمر العواصف أن تبقى لهم على قارب متين من قوارب الصيد ، كان أصحابنا قد اصطنعوه فى إنجلترا ، واصطحبوه فى رحلتهم . .

وفى هذا القارب ، راحت الجماعة تشق سبيلها خلال مصب « زمبيزى » ، وهى تقاوم الطبيعة الهائجة ، الثائرة . . حتى إذا هدأت أخيراً ، وعاد إلى السماء صحوها ، وأرسلت الشمس فيضاً من أشعتها ، تبين القوم جبلا علت قمته صخرة بشكل رأس زنجى . . رأس نحت فى دقة وبراعة ، وكأنه تحفة صاغها فنان عظيم ، من أساطين فن النحت . .

ولم يك ثمة شك فى أنها الصخرة التى ورد ذكرها فى القصة التى نقشها « أمينارتاس » على الحجر العتيق . . والتى رآها والد « ليو » حين أقبل يرتاد تلك المنطقة . .

وتبين القوم أنهم محوطون بضفاف تغطيها المستنقعات . وخلف تلك المستنقعات ، كان ثمة نطاق من أرض صلبة ، حاولوا الوصول إليها حتى أفلحوا ، فإذا أشجار على الضفتين تحنو على النهر فتبسط عليهم ظلالها . . وإذا ألوان بديعة من الزهور الجميلة ، لا مثيل لها فى العالم المتمدين . .

وهبطوا إلى بقعة من ذلك النطاق من الأرض الصلبة . . ولشد ما كانت دهشتهم حين تبينوا من المعالم ، أنها كانت رصفة لرسو السفن ، فى زمن سحيق ، قبل أن توجد تلك المستنقعات الفظيعة . .

وهتف « ليو » مبهوراً :

— لقد بدأ ينجلى أن القصة تنطوى على حقيقة يا عم هوريس ! . .

فقال « هولى » :

— إن قارة كأفريقيا لا بد أن تكون مليئة بمخلفات مدنيات قديمة ، عفى عليها الزمن ، وغيبتها أدراج النسيان . . إن أحداً لم يعرف بعد عمر المدنية المصرية ، ولا ريب أنها كانت على انتشار وتشعب عظيمين . . وهناك حضارات البابليين والفينيقيين والفرس وغيرهم من أقوام . . ولا بد أن بعض هذه الأقوام أنشأوا مستعمرات أو محطات لتجارتهم هنا . .

* * *

وتقدموا فى المجرى الرئيسى للنهر ، تعترضهم أسراب من أفراس البحر والتماسيح ، وتحلق فوق رؤوسهم طيور ضخمة غريبة . . حتى إذا انتصف النهار ، واشتد القيظ ، لاحت لهم فرجة بين المستنقعات ، فتسللوا إليها ، حيث جرب « ليو » و « هولى » بنادقهما فى صيد وعل كبير . . ثم ألقوا مرساتهم على مقربة من شاطىء هذه الفرجة ، التى بدا لهم أنها بحيرة ، ليقضوا ليلتهم . . وما كان أقساها من ليلة ، إذ راح البعوض الوحشى يهاجمهم حتى اضطروا إلى أن يلتفوا فى الأغطية من قمم رؤوسهم ، حتى أقدامهم ، ولم يدعوا ثغرة — ولو فى سعة سم الخياط — خشية أن ينفذ خلالها المهاجم الرهيب . . وكأنما اشتم ريحهم — أو ريح الوعل الذى صادوه — أسد ولبؤة ارتادا الشاطئ ليشربا ، فلم يتورعا عن أن يخوضا الماء سعياً إلى القارب ، ولكن « ليو » قتل اللبؤة . . أما الأسد ، فشاء « هجارد » أن يرسل إليه تمساحاً مفترساً يصارعه ، ليرسم صورة لمعلوماته عن الكفاح

الدائب بين الوحوش . . الكفاح الذى أوحى بمبدأ « البقاء للأقوى » !

وأخيراً ، طلع النهار يبعث بضيائه الطمأنينة والأمل فى نفوس الرواد .. فواصلوا السعى فى البحيرة ، حتى إذا غابت شمس اليوم ، جنحوا إلى الشاطئ ، ليقضوا ليلتهم فى عراك مع البعوض . . وهكذا قضوا أيامهم ، حتى إذا حان ظهر اليوم الخامس ، وجدوا أنفسهم عند بقعة تفرع فيها الماء إلى مجريين ، تبعوا أحدهما ، فإذا به ينتهى إلى طرف مغلق ، ضحل الماء ، كثير الطمى ، سدته الأعشاب . . وتبينوا أنه ولا بد قناة قديمة العهد ، حفرتها يد الإنسان فى حقبة سحيقة من حقب التاريخ . . وهبط عليهم الليل وهم يبحثون عن منفذ ، ويجدفون محاولين اختراق الأعشاب . . وكان الجهد مضنياً ، ولكنهم كانوا كلما لجأوا إلى الراحة ، حفزهم القلق ، وداعبهم الأمل ، فيعاودون التجديف . .

ودهمتهم عاصفة فى تلك الأثناء ، زادت من تخبطهم . . حتى إذا كان مساء اليوم الرابع لهم فى هذا التيه ، هبطوا إلى البر ، على مشهد من جبل ذى قمة مقعرة !

وكان التعب قد هدهم ، فاستسلموا للنعاس . .

ولندع « هجارد » — أو « هولى » — الذى أجرى المؤلف القصة على لسانه — يتول عنا الكلام . .

* * *

« وفتحت عينى وأنا أرتجف من حلم رهيب . .. وارتجفت ثانية ، خوفاً من الحقيقة فى هذه المرة ، فقد رأيت عينين واسعتين تحملقان فى خلال الضباب والظلام .. وحاولت أن أستوى على قدمى .. وأعترف أننى فى غمرة الخوف صرخت ، فقفز الآخرون وهم يترنحون كالسكارى ، فى غشية النوم وفجاءة الفزع . . وبغتة ، لمع نصل فولاذى ، ووجدت رأس حربة مسددة إلى عنقى . . وخلفها حراب أخرى ، تومض . .

« وانبعث صوت يقول فى لهجة عربية غير شائعة :

« ــ سلام ! . . من أنتم يا من قدمتم على الماء ؟

« والتصق السلاح بعنقى ، مرسلا قشعريرة باردة فى كيانى . . فقلت فى خير نطق عربى استطعته :

« ــ نحن رحالة ألقتنا الصدف هاهنا . .

« وأرخى الرجل الذى كان أمامى يده ، والتفت إلى طيف طويل خلفه قائلا :

« ــ أنعمل التذبيح فيهم يا أبتاه ؟ . .

« فأجابه صوت عميق ، مهيب :

« ــ ما لون الرجال . .

« ــ أبيض لونهم . .

« ــ لا تذبحوهم . . فمنذ أربعة أيام وردت الرسالة من " هى التى يجب أن تطاع » ، تقول : « سيأتى رجال بيض . . فإن أتوا لا تقتلوهم ، بل أحضروهم " . . .

« وكان محمد ــ فى هذه الأثناء ــ يرتجف فرقاً ، ولا يكف عن الهتاف : " يا ألله ! .. يا رب نجنى ! . . احمنى يا إلهى! " . . وتساءل أحد الرجال عن مصيره ، فقال " الأب " :

« ــ لم تبعث " هى " بكلمة عنه . . ولكن لا تذبحوه . . »

وحمل الرجال البيض الثلاثة على محفات ، أما « محمد » فسيق على قدميه . . وسار الركب فى حراسة خمسين رجلا ، طوالا ، شداداً ، مسلحين بالحراب ، إلى محلة يعيش أهلها فى الكهوف ، وقد استمتعت نساؤها بمساواة تامة برجالها . . بل كانت لهن السيادة ، فكان الأبناء يعرفون بأسماء أمهاتهم . . ولم يكن من الرجال ــ فى كل عشيرة ــ من له نفوذ سوى واحد ، كانوا يلقبونه بـ « الأب » ، ويكلون إليه تدبير شئون

عشيرته . . فإذا راق رجل لامرأة ، واشتهته زوجاً ، قبلته على ملأ من الناس ، فإذا رد إليها قبلتها ، كان ذلك دليلا على رضاه بزواجها . . وكذلك تقدمت أجمل نساء العشيرة من « ليو » فقبلته . . وبين نظرات القوم التى علقت به ترتقب رد الفعل ، ظن الأوربى أن القبلة لون من التحية ، وفى عدم ردها إهانة ، فقبل « أوستانى » — كما كانت تسمى — فإذا به يغدو على الرغم منه رجلها . . وما كان كارهاً فى الواقع ، إذ كانت جميلة ! . .

وتقدمت عجوز شمطاء من «جوب » لتقبله ، فإذا الذعر يبعثه على حركات كانت كفيلة بأن تضحك زميليه ، لولا الظروف . . وانطلق المسكين يجرى فراراً من المرأة ، فأثار ضحك لداتها ، وأوغر صدرها على الأغراب البيض . .

وساءل « هولى » الأب — وكان يدعى « بلالا » — عن هذه الـ «هى التى يجب أن تطاع » ، فأجابه الرجل العجوز فى لهجة غامضة ، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة كذلك :

— لسوف تعرف سريعاً ، يا بنى الغريب ، ما إذا كان يسرك أن تقع عليك نظراتها . .

هكذا بدأت معرفة البيض بالمرأة البيضاء ، التى أوتيت سر الحياة ، وعلماً بكل شىء ، وسحراً نافذاً فتاكا ! ! . . بسيدة أمة « المحاجر » التى يتكلم أهلها بلهجة عربية ركيكة ، وما هم من العرب فى شىء !

* * *

ورحل « بلال » ليقابل « هى » تاركاً البيض الثلاثة و « محمداً » فى رعاية قومه . . وفى ذات ليلة ، أعدت العشيرة وليمة للاحتفال بضيوفها . وما إن إستوى هؤلاء فى الكهف الذى اختير للاحتفال ، حتى أوجسوا خيفة من شرمبهم ! . . كان « محمد » فى أحد الأركان ، لا يتمالك نفسه

من فرط الذعر ، وقد راح جسده ينتفض فى عنف ، وإلى جانبه العجوز — التى أرادت « جوب » فصدها — تتلطف إليه وتقبله .. وفى وسط المكان قدر فارغة ، أحيطت بنار قوية . .

وطال ارتقاب القوم للمائدة . . وأخيراً ، نهض رجل من جانب حلقة الموجودين ، فصاح بصوت عال :

— أين اللحم الذى سنأكل ؟

فأجابه الجميع فى لهجة رهيبة ، وهم يلوحون بسواعدهم نحو النار :

— سيأتى اللحم . .

— أهو عنز ؟

— إنه عنز بلا قرنين . . وأكثر من عنز . . وسنذبحه .

— أهو ثور ؟

— إنه ثور بلا قرنين . . وأكثر من ثور . . وسنذبحه . .

وسادت فترة صمت رهيب ، اشتد فيها ارتجاف « محمد » وشحوب وجهه ، وتمتمة شفتيه بالدعاء لله . . وعاد الرجل يصيح :

— هل أعد اللحم للطهو ؟

— إنه معد . . إنه معد . .

— وهل سخنت القدر لإنضاجه ؟

— إنها ساخنة . . إنها ساخنة . .

وهتف « ليو » إذ ذاك لوصيه :

— يا إلهى ! . . أتذكر ما نقش على الحجر ؟ . . « القوم الذين يضعون القدور المحماة على رؤوس الأغراب » . .

وفعلا لم يلبث القوم أن نهضوا يرفعون القدر بمقابض طويلة ، حتى إذا هموا أن يضعوها على رأس « محمد » والعجوز تمسكه ، لم يتمالك « هولى » نفسه ، فأطلق رصاصة أردت العجوز وضحيتها . . وهاج القوم ،

وهاجموا البيض الثلاثة ، فدارت معركة حامية ، قاسية ، ثم غلبت الكثرة الشجاعة . . وإذ أوشك الهائجون أن يذبحوا ضحاياهم ، انطلق صوت مجلجل ، رددته جوانب دروب الكهف :

— كفوا أيديكم !

* * *

هكذا كان لابد لهجارد من أن يوشى قصته بالمغامرات . . فإن العصر الذى كتبها فيه كان يمجد المغامرات . . وقد سرى هذا التمجيد على مر السنين إلينا ، ومن ثم نجد أن الأدب الأمريكى لايزال حافلا بالمغامرات والمخاطرات . .

على أن « هجارد » كان يصدر فى اتجاهه إلى تصوير المغامرات ، عن ظروف أخرى نابعة من الواقع الذى كان يعيش فيه ، ومن البيئة التى كانت تحيط به . . فهو قد كتب أهم قصصه فى الخمس الأخير من القرن التاسع عشر ، فى العهد الفيكتورى ، الذى حفل بمغامرات المستكشفين لا سيما رواد أفريقيا الذين كانوا يضربون فى مجاهلها بحثاً عن منابع النيل ، واستجلاء لمناطق البحيرات ، من أمثال « بيرتون » و « لفينجستون » و « سبيك » و « جرانت » و « ستانلى » . .

وقد نشر بيرتون كتابه عن « مناطق البحيرات فى أواسط أفريقيا » سنة ١٨٦٠ ، ونشر ستانلى « يوميات كشف منابع النيل » سنة ١٨٦٣ ، وأصدر جرانت « نزهة على الأقدام عبر أفريقيا » سنة ١٨٦٤ . . وكتب « ستانلى » سلسلة مقالاته عن ارتياد أفريقيا لصحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون » فى تلك الأثناء ، ثم قام فى سنة ١٨٧٤ برحلة لتحقيق اكتشافات هؤلاء الذين سبقوه ، واختتمها فى سنة ١٨٧٧ ، مسجلا أحداثها بأسلوب قصص المغامرات . .

وأغلب الظن أن « هجارد » تأثر بما كتبه « ستانلى » بالذات ، بحكم أسلوبه القصصى وعنايته بوصف تفصيلات المخاطر التى صادفها . . ولكن

بوسعنا أن نقول – بوجه عام – إن حديث ارتياد أفريقيا ومجاهلها ، ومغامرات اقتحام المناطق المائية فيها – كما فعل أبطال قصة « هى » – كانت شغل الرأى العام فى الفترة التى بدأ فيها « هجارد » يستكمل نضجه الأدبى . . وكان ذهابه إلى أفريقيا عاملا مساعداً – إلى جانب أصداء تلك القصص – على الإيحاء له بوقائع « هى » . .

* * *

ولنعد إلى القصة من جديد . .

كان الصوت المجلجل الذى دوّى فى الكهف آمراً القوم بأن يكفوا أيديهم عن البيض ، فأنقذهم ، هو صوت « الأب » ، الذى أقبل وعليه علائم الاستياء الشديد لما ارتكبه قومه فى غيابه ، لا سيما بعد إذ شرح له « هولى » ما حدث . فقال وفى عينيه وميض الغضب : « لا تحزن يا بنى ، فلسوف يحل بهم قصاص تقشعر له الأبدان . . سيساقون إلى " هى " ، ولسوف يكون انتقامها بقدر عظمتها ! »

وكان « ليو » قد أصيب خلال المعركة ، بطعنة نافذة ، كادت توردە حتفه . . فتوفر « هولى » على علاجه ، تعاونه « أوستانى » التى راحت – فى وفاء بالغ – تمرض الرجل الجميل الذى علق قلبها به ، وتسهر عليه .

وما إن أوى « هولى » إلى مضجعه – فى تلك الليلة – حتى راح يراوده فى منامه شبح مسربل من قمته حتى أخمص قدميه ، ثم لم يلبث أن خلع السرابيل فإذا تحتها امرأة طاغية الفتنة ، راحت تردد :

« لقد عرف الحى الموت ، وما مات الذى مات . . فى عالم الأرواح ، ليس للحياة أو الموت قيمة . . فكل الأشياء باقية إلى الأبد ، وإن كانت تنزوى أحياناً فى هجعة تسلمها إلى النسيان » !

* * *

وكانت « هى » لا تفتأ تطلب أن يساق البيض الثلاثة إلى مقرها فى

« كور » . . أو « قور » ، ولعلها تحريف لكلمة « القبور » ، فقد كانت « هى » تعيش فى منطقة انبثت فيها مقابر ضمت أجساداً محنطة لموتى بيض البشرة . .

وعندما حان الوقت للرحيل إلى مقر « هى » ، استأذن « هولى » الأب « بلالا » كى يسمح لأوستانى بأن تصحبهم ، فإذا « الأب » يهز كتفيه قائلا :

— إذا شاءت صحبتنا ، فالنساء فى هذه البلاد يفعلن ما يروق لهن . . إننا نعبدهن ونطلق لهن حريتهن ، فلولاهن ما استقام للدنيا أمر . . إنهن مصدر الحياة ، ولذا نعبدهن ، إلى الأجل الذى يصبحن عنده عقيمات لا ينجبن أولاداً . . فإذ ذاك ، نقتلهن ليكن عبرة للشابات ، ولنريهن أننا الجنس الأقوى . . وعلى أية حال ، فإن « أوستانى » أصبحت — طبقاً لتقاليدنا — زوجة للأسد « ليو » . .

— وإذا أمرتها « هى » أن تتخلى عنه ؟

— ماذا يحدث إذا أمرت الأعاصير شجرة أن تنحنى فأبت ؟

وكانت الرحلة طويلة ، شاقة ، استغلها « هجارد » كى يبث مزيداً من معلوماته عن أرجاء أفريقيا ، وطبيعتها ، وزرعها ، وحيوانها . . وكى يعبر عن شىء من فلسفته ، فهو يقول على لسان « هولى » :

« إن المعرفة أقوى من البشر . . ففيض الحكمة إذا تدفق قد يعمى البصر تماماً ، والقوة المسرفة قد تثملنا وتثقل على عقلنا الضعيف حتى نهوى فتغرقنا معها فى أعماق غرورنا . . فإن ازدياد معرفة الإنسان ، وهو يستمدها من الطبيعة ، لا يلبث غالباً أن يحمله على التشكك فى وجود الخالق . . وما احتجاب الحقيقة عنا ، إلا نتيجة عدم قدرتنا على تأمل وهجهاء ، تماماً كما نعشى إذا تطلعنا إلى الشمس » !

ولقد ضربت الظروف نطاقاً من الود ضم « بلالا » و « هولى » . . ولكن الروابط اشتدت وقويت ، حين هوى « بلال » — خلال الرحلة —

فى بحيرة وكاد يغرق ، لولا أن أنقذه « هولى » . .

* * *

ولم يعكر صفو الرحلة ، سوى استفحال مرض « ليو » ، حتى لقد أخذ يهذى . ويزعم أن كيانه شطر إلى كيانين . .

وأخيراً . وصل الركب إلى هوة سحيقة ، رأى فيها القوم فم نفق مظلم كالأنفاق التى يحفرها مهندسو اليوم لتجرى خلالها السكك الحديدية . وكان النفق شطرين ، أحدهما مجرى للماء ، والآخر طريق للمرتحلين . . وما إن أقبلوا على فم النفق ، حتى عصبت أعين الأغراب الثلاثة و « أوستانى » صدوعاً بأوامر « هى » . . وتحرك الركب . وأخذ الهواء يثقل حتى خيل لهولى أنه كاد يختنق . . ومضى القوم فى دروب متعرجة ، وصمت رهيب لا يعكره سوى وقع الأقدام ، وخرير الماء . . ثم عاد الهواء يخف ويحمل أسباب الانتعاش إلى الصدور . .

ووصلوا إلى أطراف « قور » فى النهاية ، فتلقاهم الأهالى ، وحرس مسلح منظم ، أحاط بهم فى سعيهم ، حتى إذا قطعوا نصف الميل ، هبط « بلال » من محفته ، وطلب إلى « هولى » و « جوب » أن يحذوا حذوه . أما « ليو » ، فكان مسجى تحت وطأة المرض . .

ووجلوا كهفاً كبيراً ، رصع ظلامه بأضواء واهنة ، تبين « هولى » تحتها ، أن جدران الكهف كانت مزدانة بنقوش ورسوم بارزة ، تمثل الحب ، والصيد ، وتعذيب المجرمين بوضع القدور المحماة فوق رؤوسهم . . وانتهى بهم السير إلى مدخل غرفة ، أسدل عليه ستار . . وكان القوم قد تخلوا عنهم فى بداية الكهف ، وتولى قيادهم عبد أخرس أصم . .

فلما بلغوا مدخل الغرفة ، أزاح العبد الستار فى خشوع ، فإذا هم فى مكان منحوت فى الصخر ، وقد أقيم فيه سرير من الصوان ، وزود بأوعية مليئة بالماء ، وأغطية من جلد النمر . . وعلى السرير ، تركوا « ليو » فى

غيبوبة ، وفى رفقته « أوستانى » واقتيد « جوب » إلى غرفة مشابهة ، كما اشترك « هولى » و « بلال » فى غرفة ثالثة . .

* * *

وكان آسروهم قد حملوا من القارب متاعهم ، فنقل بدوره معهم فى رحلتهم . . لذلك استطاعوا أن يغتسلوا ويستبدلوا بثيابهم غيرها . . وكان « ليو » فى تلك الأثناء يصارع المرض فى جهد متوان ، واهن . . حتى لقد ظل « هولى » ملازماً فراشه ، إلى أن هبط الظلام . وفجأة ، أقبل « بلال » يدعوه إلى لقاء « هى » ، ذاكراً أنه شرف عظيم ، لم يحظ به إلا قلة ضئيلة .

وسرا إلى ممر فى طرف من الكهف ، وجدا عند بدايته حارسين وقفا جامدين كأنهما تمثالان من صوان . . ثم تلقاهما أربعة من البكم الصم ، رجلان وامرأتان . فسارت الأخيرتان أمامهما ، وتبعهما الأولان ، مجتازين أبواباً أسدلت عليها الأستار ، إلى أن انتهوا إلى باب فى آخر الممر ، وقف عليه حارسان ، وغاب خلف أستار كثيفة . . وما إن اجتازه « هولى » و « بلال » ، حتى استقبلتهما عشر جاريات فى مقتبل الشباب ، وهبن ملاحة ، وتوج رؤوسهن شعر أصفر . . وكن أيضاً من الصم البكم ! . . وهكذا ظلا ينتقلان حتى بلغا باباً ، جثا عنده « بلال » واجتازه حبواً ، وهو يهمس لهولى أن يحذو حذوه . . « فنحن نلج حضرة " هى " ، وما لم تتواضع مسختك فى مكانك ، فلا تستطيع مضيًّا ، ولا رجوعاً » !

وسرت رهبة إلى فؤاد « هولى » . . وراح يزحف على أربع خلف « بلال » ، حتى بلغا نهاية الكهف ، فإذا هى مهجورة ، خاوية . . وظل الاثنان سادرين فى حبوهما ، إلى أن اعترضتهما أستار انكفأ « بلال » أمامها على وجهه باسطاً ذراعيه فكأنه ميت . . وخيل لهولى أن عينين

ثاقبتين تتأملانه خلال الأستار . . وأحس بوحشة رهيبة . . ومرت الدقائق فى تثاقل ممض ، وقد استولى على قلبه ذعر لا قبل له به . .

* * *

ويمضى المؤلف على لسان هولى :

« وأخيراً ، بدأت الستر تهتز . . ومن بين أطوائها ، ظهرت يد من أجمل الأيدى . . بيضاء كالثلج ، ذات أصابع متناسقة ، تنتهى بأظافر وردية . . وأزاحت اليد الستر ، ثم انبعث صوت — لعله أرخم الأصوات التى سمعتها فى حياتى وأروعها جرساً — يقول فى عربية راقية :

« — أيها الغريب . . من أين لك كل هذا الخوف ، وله ؟ . .

« وعلى الرغم من الذعر الذى كان يعتسل فى أعماقى ، فإننى ظللت متمالكاً حواسى وجأشى . . وقبل أن يواتينى جواب ، انجابت الستار عن جسم طويل استوى أمامنا ، وقد تسربل كله بإزار أبيض ، كأنه الكفن . . خفيف حتى لقد خلت أننى أرى خلاله اللون الوردى ، لبشرة صاحبه . . واشتد هلعى وكأننى أمام شبح نهض من قبر . . وقفّ شعر رأسى ، ومع ذلك فقد تبينت أن التى أمامى ليست مومياء ، وإنما هى امرأة طويلة ، فتانة ، تشع حولها ضياء من الجمال والمهابة اللتين لا قبل لى بمثلهما . . وعاد الصوت ينبعث حلواً ، كأنه أنغام موسيقية سرت إلى شغاف فؤادى :

« — لم كل هذا الخوف أيها الغريب ؟ . . أفترى فى مظهرى ما يرعب الرجال ؟ . . إذن ، فقد تغير الرجال عما عهدتهم !

« والتفتّت فى حركة رشيقة متعمدة لتكشف عن شعرها الأسود الغزير اللامع ، وعن فتنة ساعدها وقوامها . . فقلت فى خشوع ، وأنا لا أعى كلماتى :

« — إنما بعث جمالك الخشوع فى نفسى يا ملكة !

« فأرسلت ضحكة كرنين الفضة وقالت :

« — أرى الرجال ما زالوا يتملقوننا معشر النساء بالكلمات المعسولة . . إنما خفتني أيها الغريب لأنك شعرت أن عيني تتغلغلان إلى أعماق قلبك . . على أنني — كامرأة — أغفر لك أكذوبتك ، لما انطوت عليه من مجاملة . . والآن ، خبرني ، كيف جئتم إلى أرض المستنقعات وسكان الكهوف ؟ . . ما الذي جئتم لتروه ؟ . . وكيف استرخصتم أرواحكم فوضعتموها في قبضة " هي " . . " هي التي يجب أن تطاع " ؟ . . وكيف قدر لك أن تعرف اللغة التي أتكلمها ؟ . . أو ما زالت قائمة في العالم الذي لا أدري عنه شيئاً ، لأنني أقيم بين الكهوف والموتى . . وأعيش بين ذكرياتي التي دفنتها في قبر حفرته بيدي ؟ . .

« وارتجف صوتها ، وتهدج . . وصرفت « بلالا » من المكان ، ثم تحولت تقول لهولي :

— يا للأحمق الأشيب اللحية . . آه ما أقل الحكمة التي يجمعها المرء في حياته . . إنه يجمعها كالماء . . فتتسرب كالماء خلال أصابعه ، ومع ذلك فإن القطرات التي تظل عالقة براحته ، تحمل الناس على أن يروه حكيما ! . . إنك قد تكون دميما ، ولكنك — إذا لم تخب حكمتي — أميناً ، طيب النفس ، جديراً بالثقة ، مفكراً . . ألا انهض ، وتعال معي ، فاجلس إلى جواري ، فلست أحب أن أراك تجثو أمامي كأولئك العبيد . . لقد مللت تعبدهم وخوفهم ! »

* * *

هكذا صور « هجارد » الملكة الغامضة « هي » . . ومن الطريف حقاً أنه لم يختر لها هذا اللقب « هي » اعتباطاً ، بل إنه كان انعكاساً لبعض ذكريات الطفولة التي انزوت في ركن مهجور من زوايا ذاكرته . .

فلقد كان لبعض إخوته وأخواته مربية ، اعتادت أن تخيفهم — كلما أتوا ما يسوؤها — بدمية من قماش ، أطلقت عليها اسم « هى » . . ولعل الرهبة التى خلعتها المربية على هذه الدمية ، هى التى أوحت إلى « هجارد » أن يغالى فى وصف الفزع والخوف اللذين تثيرهما ملكة الخيال فى النفس !

* * *

وتأنس « هى » إلى الأبيض الدميم فتقول له :

— لا حاجة بك إلى أن تخافنى . . فإنك — إذا قدر لك أن تخافنى — لن يطول بك الخوف ، لأننى لن أتورع عن قتلك . . والآن ، نبئنى ، أنى لك أن تعرف لغتى ، العربية . . فأنا عربية المولد والأصل ، من صميم العروبة ، إذ أنتمى إلى سلالة أبينا « يعرب بن قحطان » . . وقد ولدت فى مدينة « عذال » القديمة ، فى « اليمن » السعيد ! . . على أن لهجتك لهجة قبائل « حمير » ، وإن لاحظت تحريفاً فى بعض الكلمات . .

وإذ أجابها « هولى » بأنه درس اللهجة المستعملة فى مصر ، قالت :

— إذن ، فلا تزال اللغة على الألسن ، ولا تزال مصر قائمة ؟

وتبين أن آخر معلوماتها عن مصر ، تنتهى فى العصر الذى كانت فيه تحت حكم الفرس . . وسألته عن اليونان ، معقبة بزفرة حارة ، وهى تقول : « آه . . لقد أحببت الإغريق ، فقد كانوا فى جمال النهار . . وكانوا مهرة ، ولكنهم كانوا — فى أعماق نفوسهم — مردة متمردين » ! . . وحدثته عن « أورشليم » كما عرفتها تحت حكم سليمان الحكيم . . وعن المسيح ودعوته ورسالته . . وعن اليهود قائلة :

— كنت أبغضهم لأنهم أبوا أن يصغوا لفلسفتى . . يا لهم من ذئاب جحدت قلوبهم ، وتبعوا العقل فتخبطوا بين الأرباب ، واستعبدهم الجشع ، وأضلهم الخيال . . إذن ، فقد صلبوا مسيحهم ؟ .. ما كانوا ليؤمنوا بأنه ابن الرب — لو صح أنه كذلك — لأنهم ما كانوا ليحفلوا برب

لم يأتهم محفوفاً بالرواء والسلطان .. فهم لا يعبدون أرباباً ، وإنما يعبدون المال والجاه . . ألا دعهم فى غيهم يتخبطون ، فقد حطموا قلبى ، وحملونى على أن أنظر إلى الدنيا بعين المقت ، فأهجرها إلى هذه البطاح التى كان يعمرها قوم خلوا قبلهم ... لقد رجمونى عند أبواب المعبد حين سعيت كى أعلمهم الحكمة ! . .

وكشفت عن ذراعها تريه آثاراً حمراء خلال بشرتها الناصعة ، فأجفل وقال :

— إننى لأعجب ، كيف ظلت على قيد الحياة إذن ، وقد انقضى ألفان من الأعوام ، على الذكريات التى تسردينها . . كيف تعيش امرأة ألفى سنة ؟

— أواه ، أيها الإنسان ! . . لقد ظهر أن على الأرض أسراراً لم تؤتوا من علمها إلا القليل . . ألستم باقين على إيمانكم بأن كل الخلق صائرون إلى الموت ! . . ولكنى أنبئك أن ليس ثمة موت ، وإن كان هناك تحول وتغير . . فقد تموت الأقوام فى نظر العالم ، ولكن أرواحها تبقى لتبعث المرة تلو المرة . . ومن ثم فإننى — أنا عائشة كما أدعى — أرتقب بعث رجل أحببته ، وأقبع هنا حتى يعثر علىّ ! . . أما دريت أيها الغريب ، لم اعتزلت الدنيا أنا ذات القوة الجبارة ، والجمال الفذ ، والحكمة العميقة ، لأعيش هنا بين البرابرة ؟ . . إنما فعلت ارتقاباً لمن أحب ! . . لأننى أخشى أن أكون قد عشت حياة حافلة بالشرور — فليس ثمه من يقدر على التفرقة بين الشر والخير — ومن ثم أخاف أن أموت لأنطلق وراءه بحثاً عنه . . حتى لو قدر لى أن أموت — إذا حانت ساعتى — فإننى أخشى أن يضرب بينى وبينه سياج لا أقوى على اجتيازه . . أو أن أضل عنه فى الفراغ اللانهائى الذى تسبح فيه الكواكب . . ومع ذلك ، فلابد من يوم يوافيني فيه هنا . . يوم قد لا يأتى إلا بعد أن يذوب خمسة آلاف

عام فى بوتقة الزمن . . وقد يكون الغد ! . . قد يحين غداً !

* * *

ولكن . . إذا كان البشر يموتون ، ثم يردون إلى الحياة مبعوثين مرة تلو الأخرى ، فهى لم تتعرض لهذا التطور . . وتفسر « عائشة » هذا بقولها :

— ذلك لأننى كشفت — عن طريق الصدفة والمعرفة معاً — أحد أسرار الدنيا الكبرى . . ما خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة فى تاريخ الحياة ؟ . . إن الحياة رائعة . . وللطبيعة روحها الحية — كما للإنسان وهو ابنها — فمن توصل إلى هذه الروح ، وتركها تتنفس فوقه ، عاش ما عاشت . . لا إلى خلود ، فليست الطبيعة خالدة ، بل لا بد لها من موات ، كما خبا القمر وانطفأ . . أجل ، ستموت الطبيعة ، أو تتغير وترقد حتى يأذن موعد بعثها ونشورها . . ولكننى لن أرهقك بهذا الغموض الآن . . ألم تعجب كيف عرفت بمقدمكم ، وكيف أنقذت رؤوسكم من الحرق ؟ . . ألا تأمل هذا الماء !

وبسطت راحتها على إناء فيه ماء ، فإذا « هولى » يرى الأحداث التى مرت بهم حين تقاذفت الأنواء سفينتهم ، وتلاعبت العواصف بقاربهم . . وأجفل « هولى » فصاحت :

— أجل . . ليس هذا سحراً ، فما السحر إلا من أحلام الجهالة . . ليس ثمة سحر ، وإنما هناك معرفة بأسرار الطبيعة . . خلال هذا الماء ، أستطيع أن أريك ما شئت من أحداث الماضى . . ومع ذلك ، فإننى لم أعرف السر كله ، ومن ثم فأنا أعجز عن الاطلاع على المستقبل . . على أنه سر قديم ، اهتدى إليه سحرة بلاد العرب ومصر !

وتحدثا عن « ليو » ، فما إن رأت أسى « هولى » من أجله ، حتى قالت :

— لا تجزع ولا تبتئس ! . . إذا لم يشف حتى مساء الغد ، فسأوافيه وأشفيه . . ولكن ، من الذى يسهر على تمريضه ؟

— أجمل بنات شعبك أيتها الملكة !

— لا تحدثنى عن شعبى ، فهم عبيد ، ولست أحب أن ينسب العبيد إلىّ . . ولا تناديني بـ « أيتها الملكة » ، فقد سئمت النفاق . . ادعنى « عائشة » ! . . أما تلك الفتاة ، فلست أدرى أتلك التى أنذرت بها ؟ . . أهى هذه ؟

وبسطت راحتها على الماء ، ثم أمرته أن ينظر ، فإذا صورة « أوستانى » عاكفة ترقب « ليو » وهو نائم . .

وإذ سمعت اسم « ليو » ، تأملت صورته فترة ، ثم تمتمت وقد شرد ذهنها :

— يا للعجب . . وأيما عجب ! . . ما أشد الشبه !

ويوشك اللقاء على نهايته ، فيسألها مترددا ، متوجساً :

— ليس لى سوى رغبة واحدة يا عائشة . . أن ألقى نظرة على وجهك !

— مهلا يا « هولى » ! . . قد يكون فى ذلك دمارك ، وقد تقضى عمرك وقوداً لشهوة طاغية ، إذا أنا كشفت لك وجهى . . فأنا لست لك ، ولا لأى آدمى سوى واحد . . ذاك الذى كان ، ولكنه لم يعد بعد ! . . إن جمالى باق ما بقيت . . ولا تغيب فتنته عن ذهن آدمى أبداً ، إن كشفته أمامه مرة . .

ولكنه يصر . . وفى تؤدة ، تنضو عنها إزارها ، حتى يهوى إلى الأرض ، فينطلق بصر « هولى » يتأمل الكيان الرقيق الذى كساه ثوب أبيض ، أظهر مفاتن عظمته . . ويظل يصعد البصر وهو مبهوت بالفتنة الماثلة أمامه ، حتى ينتهى إلى وجهها ، فإذا بجماله وهاج ، يكاد يعشى عينيه ! . .

« ولقد سمعت عن الجمال للسماوى ، والآن رأيته رأى العين . . ولكن

هذا الذى رأيت ، كان برغم روعته ونقائه ، يوحى بالشر . . وأنى لى أن أصفه ! . . إن عمر الإنسان أقصر من أن يمتد حتى يهتدى القلم إلى الألفاظ المعبرة ! . . »

ويصعق « هولى » لهذا البهاء الأخاذ ! . .

* * *

ولا يهفو الكرى بجفنى « هولى » فى تلك الليلة . . وفجأة ، يكتشف ثغرة فى جدار غرفته ، فيدفعه الفضول إلى كشف ما وراءها . . وإذا هو ينساب من ردهة إلى أخرى ، ومن سرداب إلى سرداب ، ثم تهب نسمة تطفئ المصباح الذى كان يستضىء به . . ولفه ظلام دامس ، مرعب . . وفى غمرة الحلوكة ، لاح له لهب يتأجج عن بعد ، فسعى إليه ، وهو يزحف محتمياً بجدار . . وتبين أنه أمام مكان كالضريح ، اندلعت فى وسطه نار ، كانت « هى » عاكفة فوقها ، وقد خالطت معالم فتنتها أمارات حزن عاصف ، معربد . . وما لبثت أن استوت واقفة ، وقد رفعت ساعديها فوق رأسها ، وأخذت أصابعها تتقبض فى نقمة وشر . . وراحت ذراعاها ترتفعان وتنخفضان ، وصوتها ينبعث كالفحيح ، فى لهجة أوقفت الدم فى عروق « هولى » :

« اللعنة عليها ، ولتبق ملعونة إلى الأبد . . تلك المصرية . .

« اللعنة على ابنة النيل لجمالها . . وللسحر الذى جعلها منيعة علىّ . .

« اللعنة عليها ، لأنها حجزت حبيبى عنى . . »

ثم انخرطت فى بكاء أليم ، مرير ، لتعود بعد حين إلى صب اللعنات ، فى حقد هائج . . وتوالى البكاء ، والصلاة الخبيثة . . ثم تهتف فى أنين :

« ألفان من السنين مرت وأنا أنتظر صابرة . . أواه يا حبيبى ! . . يا حبيبى ! . . يا حبيبى ! . . لمَ أحضرك هذا الغريب إلىّ بعد هذا الزمن ؟ . . إذا كنت قد أذنبت ، أفلم أمح بعد خطيئتى ؟ . . متى تعود

إلىّ ، أنا التى أملك كل شىء ، ولكنى بدونك لا أملك شيئاً . . أواه ، يا كاليكراتس . . لا بد من أن أعود فألقى نظرة على جثتك لأتأمل وجهك ثانية ، برغم ما يبعثه هذا فى نفسى من أسى عاصف . لقد مر جيل منذ آخر مرة ، تأملتك . . أنت الذى قتلت بيدى ! . . هل أقيمك من مرقدك لتمثل أمامى ، كما فى الغابر ؟ . . إننى أقوى على ذلك . . ولكن ، ما جدوى الجسد بلا روح ؟ » . .

وقف شعر « هولى » وتملكه فزع طاغ ، جبار ، فتراجع يبحث عن الطريق إلى غرفته ، لا تكاد ساقاه تحملانه ، وقد أذهله الرعب ! . .

* * *

ولم يشف « ليو » ، بل اشتد به المرض فى اليوم التالى ، حتى أوشك أن يموت . . والتقى « هولى » بسيدة القوم « هى » — وهى تحاكم أولئك الذين اعتدوا عليهم — فتوسل إليها أن تعالج فتاه ، ولكنها أرجأته ريثما تصحبه إلى جولة لتريه بعض عجائب المكان الذى اعتزلت فيه العالم . .

كان أهل « قور » الأقدمون ، يعنون بالموت أكثر منهم بالحياة ، فيحرصون على صون الموتى ، كما كان قدماء المصريين يفعلون . . وكانوا يسجلون تاريخهم وحضارتهم على جدران تلك الكهوف ، التى أعدوها فى الواقع لتكون مدافن لهم . بل إنهم شادوا فى أعماقها مدناً ليعيش فيها موتاهم عند نشورهم . .

وكان قوم « قور » ذوى حضارة زاهرة ، وقد جاسوا خلال البحار بتجارتهم ، حتى لتقول « عائشة » لضيفها الذى قربته إليها لحكمته :

— ألا ترى يا « هولى » أن أولئك الذين أبحروا شمالا — من أهل « قور » — ربما كانوا أصل المصريين الأولين؟ . . أجل ، إنهم من أقدم الشعوب ! . . ولقد حل بهم الدمار ، ولكنه لم يمحقهم عن آخرهم ، بل بقيت منهم فضلة ، طغى عليها البرابرة والعرب ، فاختلطوا بها ، وأنجبوا

بهذا الامتزاج شعب « المحاجر » الذى آثر العيش فى المقابر التى تضم رفات آبائه الأولين . .

وراحت « هى » تطوف بضيفها خلال المقابر ، تريه الجثث وقد حنطت بمهارة غريبة ، فكأنما الحياة لم تتسرب منها إلا قبل دقائق . . ووقف « هولى » يستعرض الماضى فى خياله ، وهو يردد : « وما الخيال ؟.. لعله ظل الحقيقة الغامضة المعقدة . . أو لعله الأفكار التى تراود الروح ! » و « عائشة » سادرة فى شرح نظريتها له :

— كلنا صائرون إلى القبر كهؤلاء . . حتى أنا المديدة العمر . . سأموت ، برغم طول صدى للموت بما انتزعت من الطبيعة من معرفة ! . . ولكن ، ما الموت ؟ . . إنه فترة من نوم لن نلبث بعدها أن نصحو ، فنعيش مرة أخرى ، ثم نموت ثانية . . وهكذا دواليك على مر الأجيال . والعصور ، والأزمان ، حتى تموت الدنيا . . وتموت العوالم التى خلف عالمها ، ولا يبقى حيا سوى الروح . . أى الحياة ! . . فما الموت إلا ليل الحياة ، ولكن كل ليل مصيره إلى غد ونهار . . ولن ننتهى إلى مصير أخير إلا حين يستنفد النهار والليل ، والحياة والموت ، فتتلاشى من حيث أتت ! !

* * *

وانتهى بهما التجوال إلى مقصورتها الخاصة . . الحرم الذى لم ينفذ إليه مخلوق . . وهم « هولى » أن يرتد ، ولكنها دعته إلى الولوج : « لأن الحقيقة التى ينطوى عليها حديثك تلذ لى . . تصور أننى قضيت ألفى عام لا أجد من أتحدث إليه سوى العبيد ، وسوى نفسى . . وكان التفكير الطويل هو سبيلى إلى الحكمة وأسرار الكون . . إنك لتعيد إلى ذهنى ذكرى أولئك الفلاسفة الغابرين الذين كنت أتجادل وأختلف معهم فى الأيام الخالية ، فى أثينا ، وفى مكة ببلاد العرب » !

ومرة أخرى ، كشفت له عن وجهها الفاتن . . وفى هذه المرة ، لم ير

معالم القسوة والخبث والشر ، التى كانت تخالط القسمات الجميلة . . وإنما رأى أمامه امرأة من البشر ، تفيض عليها إشراقة روحية سامية . .

ودعته إلى الجلوس قريباً منها ، وراحت تسائله :

— خبرنى ، ألست جميلة ؟ . . لا تتعجل ، بل فكر ، وتأملنى طويلا ، وافحص ملامحى وتكوينى ! . هل رأيت امرأة وهبت لمحة واحدة من هذا الجمال الفياض ؟ . . انظر إلى خصرى . . إنه قد يبدو مكتنزاً ، ولكنه على العكس . . هات يديك ، وأحطه بهما ، لتراه !

وكان هذا فوق ما يحتمل آدمى . . وما كان « هولى » — على قبحه — إلا بشراً من دم ولحم ، فلم يتمالك أن ركع أمامها ، وصارحها بأنه قد أحبها . . بل إنه كان يعبدها كما لم تعبد امرأة فى الوجود ، وما كان ليضن بروحه الخالدة عربوناً ليتزوج منها . .

وجمدت لحظة تتأمله فى استغراق ، ثم انفجرت ضاحكة تصفق بيديها فى اغتباط وهى تقول :

— أبهذه السرعة ؟ . . لقد كنت أسائل نفسى : كم من الزمن أحتاج كى أحملك على أن تجثو أمامى هذه الجثوة ! . . إننى لم أر من أجيال عديدة رجلا يركع أمامى ، فما كانت الحكمة ومر الزمن لتنزعا من قلب المرأة رغبتها فى أن ترى الجنس الآخر يركع لها ! . . ألم أنبئك أننى لست لك ، وأننى لا أحب سوى رجل واحد ، لسته أنت ؟ ! ألا أشبع نهمك بتأمل حسنى . . متع عينيك . . وقبلنى إن شئت ، فإن القبلات لا تترك آثاراً على القلب . . ولكننى أحذرك ، فلو أنك قبلتنى لقضيت العمر محسوراً ، تتقلى على نيران الهوى . .

وأفاق من غشيته العاطفية ، فجلس منكس الرأس محسوراً . . وداخله الخجل لما تولاه من ضعف . . وسرعان ما تغلب على هذا الضعف .

* * *

وزارت « عائشة » مرقد « ليو » فى ذلك المساء . . فأمرت « هولى » أن يقصى عن الغرفة « جوب » و « أوستانى » . . وبادر الأول بالخروج ، فقد أرعبه مرأى « هى » وقد اختفى كيانها تحت حجاب شامل ، فبدت كشبح يدرج فى الأكفان . . أما « أوستانى » فأبت أن تغادر حبيبها ، وهمست لهولى قائلة وقد تملكها خليط من الفزع والتوجس والنبض ، إزاء مليكتها :

ــ ماذا جاءت « هى » تبغى ؟ . . إن من حق الزوجة أن تبقى إلى جوار زوجها وهو يموت . . لن أخرج !

واستدارت « هى » فأشارت إليها ، ولفظت كلمة واحدة ، فإذا الفتاة تغادر الغرفة زحفاً ، وهى ترتعد فرقاً . .

وما إن كشفت « هى » عن وجه « ليو » حتى ترنحت ، وندت منها آهة مذهولة ، مثقلة بالهم والمفاجأة ، ثم استدارت فانقضت على « هولى » وهى تصيح فى فحيح رهيب :

ــ أيها الكلب ، لم أخفيت عنى هذا ؟ . . إذا كنت لم تعلم ، فاعلم الآن أن هذا المسجى هو « كاليكراتس » . . حبيبى المفقود ، وقد عاد إلىّ كما كنت موقنة . . كنت أدرك أنه لا بد عائد !

وانتابتها حال غريبة ، فراحت تهذى ، وقد اختلط ضحكها بنحيبها . .

ومن قنينة صغيرة قدمتها « هى » ، سكب « هولى » سائلا غريباً فى حلق « ليو » ، فإذا وجهه يمتقع ، وإذا حشرجة تتصاعد فى حلقه . . وعلى محيا الشاب التائه فى الغيبوبة ، انعكست معالم المعركة التى دارت فى أعماقه بين الموت والحياة . . و « هى » عاكفة على وجهه تتأمله ، وقد احتضنت رأسه وشحب وجهها لفرط القلق والانفعال . .

وانتصرت الحياة أخيراً ، فاستسلمت « هى » لنوبة من البكاء والضحك ، حتى إذا تمالكت نفسها ، هتفت :

يلتقون بإغراء أقوى وأشد ، لا يملكون إلا أن يستسلموا له . . إن الرجل يشترى بجمال المرأة ، إذا كانت المرأة باهرة الجمال . . ولكن ما من امرأة تستطيع أن تبتاع الجمال ، مهما أوتيت من ذهب ، ما لم تكن قد وُهبته خلقاً . . ومهما يكن ، فلا بد لهذه المرأة — التى تقف بينى وبين حبيبى — من أن تموت . . صحيح أننى قادرة على أن أنتزعه منها بجمالى وسحرى وسلطانى ، ولكنه قد يظل عالق الفكر بها إذا هى بقيت على قيد الحياة . . لقد حظيت بنصيبها من الحب ، فلتقع ، وليبتلعها الليل . . أتقول إن قتلها خطيئة ؟ . . يا لك من أحمق ! . . إذن فحياتنا كلها خطيئة مسترسلة . . لأننا فى كل يوم ندمر كى نعيش ، إذ لا بقاء فى هذه الدنيا إلا للأقوى . . أما الضعيف فلا بد من أن يهلك !

ويجادلها « هولى » فى استبسال ، حتى إذا أوشك أن ييأس هتف بها :

— ألم تقولى إنك أسأت إلى هذا الرجل فى الماضى السحيق ، إذ قتلته بيديك كى تحرمى منه « أمينارتاس » المصرية ؟

وذهلت إذ تبينت أنه يعرف القصة القديمة ، وإن زعم لها أنها إنما نميت إليه خلال حلم طاف بذهنه فى كهوف « قور » !

وأجفلت « هى » من أن تكرر الخطيئة التى قضت ألفى عام تعانى الندم من أجلها . . ولذا وافقت على الإبقاء على « أوستانى » . . عدلت عن قتلها ، كى تعبث بها كما يعبث القط الضخم الشرس ، بالفأر الصغير الضعيف . . ثم تقول لها :

— لقد أذنبت أيتها المرأة إذ اتخذت هذا الرجل زوجاً ، وهو غريب . إنه ليس من قومك ، ولذا فإن تقاليدهم لا تسرى عليه . . ولعلك فعلت ذلك عن جهل ، ومن ثم أبقيت عليك . . فعودى يا امرأة إلى مقرك ، وإياك أن تجرئى على أن تتحدثى أو تتطلعى إلى هذا الرجل . . إنه ليس لك . . واحذرى أن تخرجى على أمرى هذا ، فإنه قانون ، وإلا كان

ـ ألا اغفر لى ضعفى يا « هولى » ، فما أنا ـ كما رأيت ـ إلا . . امرأة ، برغم كل شىء !.. لقد عشت ألفى عام فى جحيم كذلك الذى ذكرت لى أن النبى الجديد « محمداً » أنذر به من لا يتبعه . . كنت معذبة ليل نهار ، تراودنى ذكرى جريمة ارتكبتها ، وتقسو علىّ رغبة لم تتحقق . . فكنت أتألم وأعانى ، وليس من رفيق يسرى عنى ، ولا طمأنينة تهدئ عذابى ، ولا موت يخلصنى من الألم . . أواه يا « هولى » ! . . وأخيراً أتى الشخص الذى على يديه خلاصى من العذاب . . أتى فلم أفطن إلى مقدمه . . ألا ترى أننى لا أزال جاهلة برغم ما أوتيت من علم ؟ . . وأخيراً ، وبعد هذا الانتظار الطويل ، الحافل بالآلام ، أجده على شفا الهلاك . . ما أظنك ـ ولا أحد فى الوجود ـ يستطيع أن يدرك مدى ما توزع قلبى من مشاعر خلال الدقائق الخمس التى انقضت عقب إعطائه الدواء ، قبل ظهور مفعوله . . لقد خيل إلىّ أنه مات ، ولما أفرح باللقاء ، فتجمعت آلام الألفى عام لتثقل قلبى دفعة واحدة . . ثم . . ثم تنهد . . وعادت الحياة تسرى فى كيانه . . ولم يمت !

وانحنت فطبعت على جبين « ليو » قبلة مفعمة بالحنان . . ثم تذكرت « أوستانى » فعاتت محياها فترة ، وقالت :

ـ لابد أن تموت . . حالا !

* * *

وهتف « هولى » مرتاعاً :

ـ ولأى ذنب يا عائشة ؟ . . لقد أحبت الرجل ، فتقبل حبها راضياً . .

ـ أى ذنب؟ . . إنها تقف بينى وبين من أشتهى . . إننى أعرف أن فى طوقى أن أنتزعه منها ، فليس على الأرض رجل يقوى على مقاومتى إذا جمعت قوتى . . وما يدوم إخلاص الرجال إلا ريثما تنقشع نزواتهم ، وإلا ريثما

الموت نصيبك . . اذهبي ! . .

ولكن « أوستانى » العاشقة المدلهة تستمد من حبها قوة لتقول :

ـ لن أذهب . . إنه زوجى ، وإنى لأحبه . . فبأى حق تأمرينى أن أفارقه ؟

وبذلت « عائشة » جهداً فى تمالك نفسها ، ولكن الغضب استبد بها ، فرفعت يديها بحركة سريعة ، وصفع « هولى » آثارها قائلا : « وخيل إلىّ أنها ضربت الفتاة هوناً ما على رأسها .. ونظرت إلى « أوستانى » فإذا بها تترنح فى جزع . . وعلى شعرها ، عند المفرقين ، رأيت آثار ثلاثة أصابع . . فى بياض الجليد » . .

وغادرت «أوستانى » المكان وهى تنتحب أمرّ نحيب . .

* * *

وشفى « ليو » . . التأم جرحه العميق بفضل دواء « عائشة » . .

وكان قلقه بالغاً لغياب « أوستانى » الوفية ، ولكن « هى » كانت قد حذرت « هولى » من أن يذكر له كلمة عما حدث . .

وتلقت « عائشة » الشاب فى أول مرة غادر فيها فراشه ، وسعى للقائها ، وقد اتخذت أبهى زينتها ، وبدت أقوى ما تكون سحراً وفتنة . . وأرته ألواناً من علمها وسلطانها . . وأقامت حفلا ـ بمناسبة شفائه ـ على أضواء مشاعل غريبة ، لم تكن سوى مومياوات من مخلفات أهل « قور » الغابرين ، وقد اشتعلت بوهج غريب . . وحول اللهب ، راحت امرأة ترقص فى حركات عنيفة ، ثم ارتمت على الأرض ، والزبد يتدافع من فمها وهى تصيح :

ـ أريد عنزاً سوداء . . لابد من عنز سوداء !

وأحاط بها راقصون آخرون ، ثم صاح أحدهم :

ـ لقد تملكها الشيطان . . احضروا عنزاً سوداء . . اطمئن أيها

الشيطان ، فسرعان ما تحضر العنز !

إنها صورة رائعة لحفلات « الزار » ، وقد خلع عليها « هجارد » مظاهر العنف الوحشى البدائى ، الذى كانت تتسم به فى الأقوام المتأخرة فى مجاهل أفريقيا . .

وفيما كان « ليو » يتفقد الراقصين وبقايا الجثث الملتهبة ، فى رفقة « هى » ، برزت من بين الراقصات امرأة ، همست له أن تعال . . وعرفت أذناه صوت « أوستانى » ، فهرع خلفها إلى أطواء الظلام ، و « هولى » فى أثرهما . .

وهتفت الفتاة لليو ، إذ أمنت للظلام :

— إن « هى التى يجب أن تطاع » تهدد حياتى بخطر محيق . .

وقال « ليو » فى إخلاص :

— لقد كنت أبحث عنك . . تعالى نشرح الأمر للملكة !

— إنها لن تتورع عن قتلنا . . ليس من سبيل لنا إلا الفرار عبر المستنقعات فى التو ، فقد ننجو . . أسرع ! . . عجل ، فإن الموت يخالط الهواء الذى نستنشقه . . وإن « هى » لتسمعنا الآن !

وانزاح إزارها عن رأسها فى تلك اللحظة . فرأى « هولى » أثار الأصابع الثلاثة تتوهج على شعرها . والتفت فإذا « هى » تقف وراءهم ، فى رفقة « بلال » واثنان من عبيدها الصم البكم . وشده « هولى » . واستبد بالفتاة ذعر قاتل ، فى حين وقف « ليو » ذاهلا ، لايدرى ما وراء الموقف . .

وهتفت « أوستانى » فى ضراعة :

— لا تعبثى بى ولا تعذبينى . . اقتلينى !

وبإشارة من يد « عائشة » تقدم العبدان نحو الفتاة ، ولكن « ليو » انقض على أحدهما . . وضحكت « عائشة » قائلة :

— دع الرجل يا ضيفى، فهو لن يضر الفتاة، ولكنى أخشى عليها برد الليل، ولذا سأستضيفها فى مسكنى . .إن من تعزه وتؤثره عزيز أثير لدى أنا الأخرى !

* * *

وفى مخدع « عائشة » ، نصب الميزان لحساب « أوستانى » . . وقال « ليو » فى دهشة وهو يجهل كل شىء :

— إنها لم تذنب فى شىء . . ما كانت زوجة رجل آخر ، ولقد تزوجتنى طبقاً لتقاليدكم . . وعلى أية حال، فأنا شريك لها ، وإذا كان لا بد من عقابها ، فعاقبينى معها !

وقالت « هى » للفتاة ، فى لهجة قاسية :

— لمَ فعلت هذا يا امرأة ؟

ووهب الحب « أوستانى » جرأة وبسالة ، فقالت رافعة الرأس :

— لأن حبى أعمق من القبر . . لأن حياتى بدون هذا الرجل الذى اختاره قلبى ، ليست سوى الموت ذاته .. إننى لأعرف أنك نفسك تحبين هذا الرجل، ولذا تودين هلاكى لكى لا أقف بينك وبينه .. ولكننى لن أحفل بالموت ، لأن فى صدرى ضوءاً متألقاً ، أرى على هديه الحقيقة ، والمستقبل الذى لن أنعم به . . لقد عرفت مذ رأيته أن الموت سيكون هدية عرسى ، ولكننى لم أبه ، إذ عقدت النية على أن أدفع الثمن . . سأموت، ولكنك لن تجنى الثمرة التى تنشدين ، لأنه لى .. إنه رجلى ، وسيبقى ولو توهج جمالك كالشمس تعشى الأبصار .. وإنك لصائرة — بدورك — إلى الهلاك !

وصرخت « عائشة» فى حنق . . ونهضت باسطة ذراعها ، فإذا « أوستانى » تصعق فى الحال . . وتهوى بين أحضان الموت، وكأنما مسها تيار كهربائى قوى .

وقفز « ليو » منقضاً على « هى » ، فبسطت ذراعها ، وإذا به يترنح ، فتلقاه « هولى » بين ذراعيه . . وقالت « عائشة » :

— سامحنى يا ضيفى ، إذا كنت قد أزعجتك بعدائى . .

— أسامحك يا ظالمة ؟ ! . . يا قاتلة ! . . قسماً لأقتلنك لو استطعت !

— إنك لا تفهم ، وقد حان الوقت كى تعرف . . إنك حبيبى الجميل القوى « كاليكراتس » . . لقد انتظرتك ألفى عام يا « كاليكراتس » . . وها قد عدت !

— بل تكذبين . . لست أدعى « كاليكراتس » ، وإنما كان جدى الأول صاحب هذا الاسم .

— هو ذلك . . ولكنك « كاليكراتس » ، وقد بعث إلى الحياة . . يا حبيبى وسيدى . .

وتجلت له فى أبدع آيات فتنها . . ووقفت ترمقه وقد ثبتت نظراتها على وجهه ، فإذا بأعصابه تسترخى ، بفعل تأثير خفى عجيب . . وبسطت له ذراعيها فى دعاء . . ولكن عينيه وقعتا على جثة « أوستانى » فهتفت عائشة :

— إذا كنت قد أذنبت ، فليكفر جمالى عن ذنبى . . إنما أذنبت لأننى أحبك . .

وهمست فى صوت ساحر ، وهى تبسط ذراعيها : « ألا تعال ! »

وكأنما كانت نظراتها قوة طاغية ، أحاطت بالشاب ، وراحت تجذبه إليها . . فإذا هو يحتويها بين ذراعيه ، وإذا شفتاه تلتصقان بشفتيها . . وفى أوج نشوته ، انسابت من أحضانه ضاحكة وهى تقول فى سخرية المنتصر :

— ألم أقل لك إنك لن تلبث أن تسعى إلىّ يا « كاليكراتس » ؟

ودعت العبيد ، فحملوا جثة « أوستانى » وانصرفوا بها ، و « هى » تقول :

ـ ها هوذا الماضى يولى !

* * *

وقالت لليو :

ـ لعلك لا تصدقنى يا « كاليكراتس » . . لعلك تظننى أخدعك إذ أقول إننى عشت ألفى عام ، وإنك بعثت من جديد لتكون لى !

وانسابت إلى الطرف الأقصى من الغرفة ، فأزاحت ستاراً ، وهبطت سلماً خلفه ، يتبعها « ليو » و « هولى » ، ثم انتهت إلى سرداب ، أفضى إلى قبر . .

ورفعت « هى » المصباح فوق رأسها قائلة :

ـ تأمل المكان الذى اعتدت أن أنام فيه طيلة الألفى سنة فى انتظارك..

وعلى السرير الحجرى ، كان ثمة جسد مسجى اعتادت أن تنام إلى جواره . . جسد كاهن « إيزيس » الآبق . . جسد « كاليكراتس » ! !

وكان صورة دقيقة إلى أقصى حدود الدقة ، لليو . . وكأنما كان ثمة اثنان « ليو » ، واحد ميت مسجى ، والآخر حى قائم على قدميه . .

وقبل أن يفيق الشاب ومربيه من ذهولهما ، نثرت « عائشة » على الجثة المسجاة سائلا من قنينة ، فلم تنقض دقيقتان ، حتى غدت الجثة بضع قبضات من رماد !

وذرت « عائشة » بعض هذا الرماد فى الهواء ، قائلة فى لهجة رهيبة :

ـ الرماد يعود إلى الرماد . . والماضى إلى الماضى . . لقد مات « كاليكراتس » . . ولقد بعث ثانية ! . . والآن ، اتركانى ، لأستغرق فى الأفكار !

* * *

وما إن خلا « ليو » إلى « هولى » ، حتى راح ينْن فى أسى ، قائلا :

ـ ماذا أفعل ؟ . . ليس بى قبل على مقاومة هذه الساحرة الرهيبة ! . .

إننى أعرف أن قد صرت فى قبضتها وطوع سلطانها . . إننى مسوق إليها كما تنساق الإبرة إلى المغناطيس . . ليس فى وسعى أن أفارقها ، فإن ساق لن تحملانى . . ولكن ذهنى لا يزال خاضعاً لسلطانى ، وإنى لأمقتها فى نفسى !

ويمضى « هولى » فى القصة :

« وللمرة الأولى ، صارحته بأننى لا أختلف عنه فى التعلق بالمرأة . . وفى مقتى لها . . وحاولنا أن نفكر فى الفرار ، ولكنا أيقننا أن لا قدرة لنا على ذلك . . كنا كالفراش الذى يدرك أن هلاكه فى الضوء ، ولكنه يتهافت عليه . . كنا كمدمنى المخدرات ! . . وماذا كان فى وسع " ليو" إزاء جمالها ؟ . . الجمال المختلط بجريمتين ارتكبتا من أجل حبه ؟ . . لقد كنت أنا الآخر أحبها ، وما زلت حتى اليوم . . ولعمرى إنى لأوثر أن أنعم بحبها أسبوعاً واحداً ، على أن أخلد فى هوى أية امرأة أخرى» ..

* * *

وفى اليوم التالى ، وجد « ليو » نفسه منساقاً إلى عناق « عائشة » فى قوة وعنف ، كلما أمرته ! . . وقالت له وهى تدلله :

— ألم تسائل نفسك متى أغدو لك كما أنت لى يا « كاليكراتس » الحبيب ؟ . . ينبغى أولا أن تصبح مثلى . . لا مخلداً — فلست بخالدة — وإنما فى وقاء منيع من سهام الزمن . . ثم إننى لست إلفاً لك الآن ، بل إن كيانى قد يحرقك ويفنيك . . ولن تقوى على التطلع إلىّ طويلا ، وإلا عشيت عيناك . . فى هذا المساء ، سنتطلق قبيل الغروب فى رحلة تنتهى بعد غروب شمس الغد ، إلى منبع الحياة.. وهناك تستحم باللهب ، فتخرج مصقولا كما لم يكن أى رجل قبلك . . وعند ذاك يا « كاليكراتس » أغدو زوجتك . . وأنت أيضاً يا « هولى » ، سأجزيك على حكمتك وصدقك ، بأن أكفل لك الشىء نفسه . .

ومرة أخرى ، عادت تسأل عما حدا بهما إلى السعى إلى أراضيها . . وروى « ليو » لها القصة من البداية ، فهتفت لحولى :

ــ ألم أقل لك إن الشر قد يلد الخير ، وإن الخير قد يؤدى إلى الشر . . لقد كانت « أمينارتاس » المصرية التى كرهتنى ــ وما زلت أكرهها ــ هى الدافع الذى ساق حبيبها إلىّ . . لقد قتلته بسببها ، فعاد إلىّ بحافز من رغبتها فى الانتقام ، ومع ذلك . .

وركعت على ركبتها ، وكشفت عن صدرها العاجى وصاحت بليو :

ــ إلى جوارك سكين ماضية ، فأغمدها فى قلبى وأنفذ انتقامك . . أغمدها يا « كاليكراتس » لترضى ، وانطلق فى الحياة لتسعد بأنك أطعت الصوت المنبعث من أعماق الماضى ، وانتقمت . .

ونظر إليها آسياً ، ثم مد يده فأنهضها قائلا :

ــ قومى يا عائشة ، فإنك لتدركين أن ليس بوسعى أن أضرك . .

ــ إننى فى قبضتك كأى عبد من عبيدك . . لأهون علىّ أن أقتل نفسى . .

ــ ها قد أوشكت أن تحبنى يا « كاليكراتس » . .

ومضت تحدثه عن المستقبل الذى أعدته له . . لسوف تمكنه من حكم الأرض . .

* * *

وانطلقوا فى الرحلة إلى عين الحياة ، واللهب ، ومعبد الحقيقة . .

وكانت رحلة طويلة ، استغلها « هجارد » ليبث مزيداً من معلوماته عن أفريقيا ، وليستعرض بعض الآثار الباقية من أطلال الماضى ، فيعلل وجودها بعد إذ طوى التاريخ والزمن سرها . .

وفى « معبد الحقيقة » ، رأيا تمثال « الحقيقة » وقد نقش على قاعدته :

« أليس من إنسان يزيح النقاب عن وجهى ويتأمله ؟ . . إنه رائع

الجمال ! . . إنى ملك لذلك الذى يزيح نقابى ، ولسوف أمنحه الطمأنينة ، والمعرفة ، وجلائل الأعمال » . . وصاح صوت قائلا : « إنك عذراء برغم كل هؤلاء الذين يسعون وراءك ويشتهونك . . ولسوف تبقين عذراء إلى آخر الزمن ، فليس من رجل أو امرأة فى هذه الحياة يزيح قناعك . . فبالموت وحده يزاح القناع » ! . . فبسطت الحقيقة ذراعيها وبكت !

لمحة أخرى ، من لمحات المعرفة والفلسفة يرسلها « هجارد » خلال الخيال . .

وبعد مطلع شمس النهار التالى ، أمرت « هى » عبيدها ومرافقيها أن يمكثوا حيث بلغوا ، وقادت البيض الثلاثة خلال أخطر مراحل الرحلة . . مرحلة بدأت بتسلق جبل شبه عمودى ، يطل على هوة سحيقة . . وانتهوا إلى فوهة كهف ، ساروا فى سراديبه ، حتى بلغوا منتهاه . وفى الظلام الدامس ، قادتهم « عائشة » على حافة ضيقة ، تحتها هوة لا يكاد البصر يصل إلى غورها . . وراحوا يزحفون على ممر كالصراط ، ويقاومون ريحاً عاتية . . يكاد يصم آذانهم خرير قوى ينبعث من تحتهم ، وهم معلقون بين السماء والأرض . .

وقالت « عائشة » إذ اجتازوا الصراط الرهيب :

— لننتظر قليلا ، فلن نلبث أن نجد ضوءاً !

وإن هى إلا لحظات ، حتى بدت الشمس الجانحة للمغيب ، مرسلة ضوءاً ، كأنه سيف من لهب . . وكان معهم معبر من خشب ، مدوه بإرشاد « هى » عبر الفضاء ، فوق الهوة السحيقة ، إلى قمة مدببة ، استوت فوق رأسها الدقيقة صخرة مسطحة . . وعبرت « هى » فى جرأة وخفة . . وتبعوها وقد تخلخلت ركبهم ، ووهنت سيقانهم لفرط الخوف . . ولكن « جوب » لم يكد يجتاز المعبر بعد تردد مضحك — للقارئ لا لأبطال القصة — حتى تزحزح المعبر عن مكانه ، ثم هوى فى

الفضاء . . وعبرا الأربعة بعض الصخور ، ثم أوقدوا مصباحين كانا معهم ، فإذا هم فى غرفة صخرية دافئة . .

وقبل أن يبلغوا مبعث اللهب ، وهبت « عائشة » حياتها لليو ، وخلعت النطاق الذهبى الذى كان يحيط بخصرها رمزاً لعذارتها . فقدمته إليه ، وأقسمت لتكونن له قلباً وقالباً ، ولتدينن له بالطاعة والولاء . .

* * *

وانطلقوا يسرون فى طريق كله وهاد ومفاوز وأخطار .. وبلغوا سرداباً ، فتلقاهم ضوء لم يعرفوا مبعثه . . وانطلقوا خلال سراديب متصلة به ، حتى استقبلهم دوى هائل مستمر . . وإذا أمامهم عمود من لهب له ألوان قوس قزح ، وله بريق يخطف البصر ، وقد أخذت ناره تمور وتفور . وبهروا . . وبهتوا ، عدا « عائشة » . . وهتف « ليو » إذ سألته عما إذا كان مترددا :

— سأدخل النار ولو قضت علىّ !

وتجردت « عائشة » من ثيابها ، ثم غابت فى اللهب . . كانت تجدد شبابها ، وتتطهر من الحقد الذى ملأ قلبها ضد « أمينارتاس » . . ورأوا جمالها يذوى ، وجسمها يتضاءل ، ولون بشرتها يستحيل إلى لون الحجر القديم . . وشاه وجهها وسطت عليه عوادى العمر الطويل الذى عاشته . .

وتصاعد صوتها :

— كاليكراتس . . لا تنسنى ! . . إننى لا أموت ، ولكنى سأرد إليك ، وسيعود جمالى معى !

ثم انبطحت على وجهها فإذا هى جثة هامدة . .

ماتت ، فى عين البقعة التى قتلت فيها « كاليكراتس » قبل عشرين قرناً . .

وعاد « ليو » إلى إنجلترا محزوناً ، بعد أن اجتاز مع « هولى » مخاطر

تقشعر لها الأبدان . .

وعاد « هولى » وهو موقن أن المأساة لم تتم فصولا ، ولكن . . كيف تراها تتطور وتنتهى . . وبأى فصل تستأنف تطورها ؟ . .

* * *

ولم يشأ « هجارد » أن يترك السؤال دون جواب ، فقد كان فى ذهنه الحالم مزيد من الوهم والخيال . . ومن ثم أتبع « هى » بقصة « عائشة .. عودة هى ، التى بيع منها ٢٥,٠٠٠ نسخة ، عقب ظهورها مباشرة .

أليس بعد ذلك فى الخيال الخرافى روعة لا تقل عن تلك التى فى الخيال الواقعى ؟ ! . .

بقيت علاقة أخيرة بين الكاتب والكتاب . .

فلقد أحب « هنرى رايدر هجارد » فى صدر شبابه ، وكان حباً قوياً ، عارماً ، ملك عليه كل قلبه . ولكنه لم يلبث أن منى فى هذا الحب بصدمة قاسية ، خلفت جرحاً غائراً فى فؤاده . .

ولقد تزوج بعد ذلك ، وعرف استقرار الحياة الزوجية . . ولكنه لم ينس لحظة حبه الأول . .

أفرى فى قصته انعكاساً لما كان يداخل فؤاده من أمل فى عودة حبيبته ، وعودة حبه ؟ !

أعتقد ذلك . . فما رأيك أنت ؟

٣

. . ومن القصص الخيالى المحض ، ننتقل إلى قصة واقعية ألبسها كاتبها من الخيال ثوباً حاول به أن يخفى معالم واقعيتها الحقيقية . . ولكن الذين يدرسون حياة الكاتب ، إلى جانب إنتاجه ، يلمسون أن هذا الثوب كان من الشفافية بحيث إنهم يستطيعون أن يروا الحقيقة ، وأن يخرجوا بأن الكاتب لو كان قد وضع اسمه مكان اسم بطل قصته ، واسم حبيبته مكان اسم البطلة ، لكانت القصة صورة واقعية من حياته هو . .

تلك هى قصة « غادة الكاميليا » التى سجل فيها « ألكسندر دوما » (الابن) ، حقبة من حياته ، وغراماً صادقاً استعر يوماً فى فؤاده . .

فلنر أيهما أكثر وقعاً فى النفس : الخيال الممعن فى الخرافة — كقصة « رايدر هجارد » — أو الحقيقة المغلفة بستار من الخيال . . كهذه القصة التى نعرضها فى الصفحات التالية . .

غادة الكاميليا

ألكسندر دوما الابن

لو قدر لحاسب أن يجمع عدد النسخ التى طبعت من « غادة الكاميليا » ، واللغات التى ترجمت إليها ، ثم عدد النسخ التى طبعت من كل ترجمة ، والمرات التى أخرجت فيها على المسرح ، والتى عرضت فيها على الستار الفضى ، لذهل ، ولأرهق موارد أرقامه . . وما أحسب هذه القصة إلا فى الدرجة الأولى بين الكتب التى صدرت منذ اختراع المطابع — فيما عدا الكتب السماوية — من حيث الانتشار والرواج وازدياد شغف كل من يقرؤها بها ، فلا يكف عن العودة إليها كلما أتيحت له الفرص . .

وتسأل عن سر هذا الرواج فتحار . . إن له عوامل عديدة ، ليس أقلها أو أهونها ، أن مؤلفها « ألكسندر دوما » — أو دوماس كما عرف لقراء العربية — الابن أوتى أسلوباً جزلا مشوقاً ، زادته روعة إلهامات التجربة ، وإيحاءات الحب القوى ، المتأجج . . فلقد جاهر « دوما » مراراً بأنه إنما روى قصته الشخصية إذ كتب « غادة الكاميليا » ، وإنما خلد غرامه إذ خلد شخصية « مرجريت جوتييه » بطلة القصة . .

ولو أن ميزات هذه القصة اقتصرت على أنها صفحات من هوى جبار ، سطرها عشيق ظلم فتاته . ثم عرف الحقيقة بعد موتها فأكبرها وتولاه ندم طاغ شاء أن يتخفف منه بعمل فنى ينصف الحبيبة بعد موتها — لو أن ميزات القصة اقتصرت على هذا ، لكان قدراً كافياً لأن يكفل لها الرواج . ولكن القدر كان يرقب ندم « دوما » بعين فاحصة ، فلما استيقن من صدقه جعل المحاولة سبباً فى خلود اسم صاحبها واسم فتاته . . وهيأ

لـ « مرجريت» — وهو الاسم الزائف الذى خلعه « دوما » على حبيبته — خاوداً فوق ما أراده لها الحبيب النادم الحزين .

ذلك أن القصة لم تلبث أن اقتبست للمسرح . فإذا شخصية « مرجريت » تستهوى ألمع الكواكب فى مسارح العالم ، على مر السنين ، فيتنافسن فى أداء دورها . . ومن المؤكد أن « ألفونسين دوبليسى » ، أو « مارى » — كما عرفتها « صالونات » باريس الراقية — أو « مرجريت » كما أسماها « دوما » فى قصته . . من المؤكد أنها ما كانت تحلم يوماً بأن تتقمص « سارة برنار » شخصيتها وهى فى أوج مجدها المسرحى . . وأكثر من مؤكد أن الفتاة التى نشأت فى أقسى الظروف عنتاً وإذلالا ، والتى مسحت بها الأيام أرض قرية « سان جرمين دوكلير فى » — بمقاطعة نورماندى — — وشوارع باريس ، قبل أن ترفعها إلى أحضان علية الباريسيين وأغنيائهم . . يقيناً أن هذه الفتاة ما تصورت يوماً — ولو فى الخيال — أن يؤدى دورها على المسرح ممثلات كبيرات فى مشارق الأرض ومغاربها . . فى بلاد لعلها لم تكن تسمع شيئاً عنها !

وهنا ! . . من ذا الذى ينسى نجاح «روزاليوسف» فى دور « مرجريت جوتييه » على المسرح المصرى . . لقد ألقت كل منهما — الممثلة والشخصية — أضواء من المجد على الأخرى . . وظلت « غادة الكاميليا » مبعث زهو ، وآية نجاح للممثلة الكبيرة ، حتى بعد أن اعتزلت المسرح وجاهدت فى ميدان الصحافة . . وحتى بعد أن أسلمت راية الجهاد لتثوى إلى الراحة الأبدية . .

وغارت « السينما » من « المسرح » ، فما لبثت أن تخاطفت القصة .. حتى مصر — عندما كانت صناعة السينما فيها ناشئة — أبت أن ترضى عن إنتاج « هوليود » ، فأخرجت القصة الخالدة فى أكثر من « فيلم » . . ولعل التحريف والتحوير وضعف موارد المنتجين ونقص النواحى الفنية

قد تعاونت على تشويه « غادة الكاميليا » المصرية ، ولكن أحداً لا ينسى كيف تجلت « ليلى مراد » فى دور « مرجريت » ، فكسبت انتصاراً جديداً فى حياتها الفنية . .

ولكن . . لمَ نأينا عن الموضوع الأصلى . . عن القصة ! ! . .

فلنبادر بالعودة إليها . .

* * *

إن المرء ليحار . كيف يبدأ . . أيبدأ بالقصة الحقيقية التى كتبها القدر . . قصة « ألفونسين دوبليسى » ، أم يبدأ بالقصة الروائية التى كتبها « ألكسندر دوما » الابن . . قصة « مرجريت جوتييه » ، « غادة الكاميليا » . .

عسير على من عرف الاثنتين أن يفرق بينهما ، وأن يتكلم عن إحداهما دون الأخرى . . فكل منهما تقحم أحداثها وأسماءها فى سياق الحديث عن زميلتها ، لأنهما واحد . . ولعل من آيات عبقرية « دوما » أن مزج الحقيقة بالخيال ، والخيال بالحقيقة ، فلا تفريق بينهما . . كل ما هنالك من اختلاف ينحصر فى أن « دوما » انتحل أسماء ليسدل ستاراً شفافاً على الشخصيات الحقيقية . . ولا يكاد يهمنا هنا سوى الشخصيتين الرئيسيتين : « ألكسندر دوما » ، وقد أطلق على نفسه اسم « أرمان دوفال » . . ويلاحظ أن الحروف الأولى من الاسمين واحدة : « ا . د . » . . و « ألفونسين دوبليسى » — التى اشتهرت فى باريس باسم « مارى » — وقد أطلق عليها الكاتب اسم « مرجريت جوتييه » .

* * *

كان لقاؤهما الأول فى ميدان « لابورس » . . ولم يكن لقاء بالمعنى الصحيح ، إذ أنه لم يتعد مصادفة عابرة ، رأى فيها « أرمان » غانية رشيقة جميلة ، فى ثوب حريرى ، وعلى كتفيها وشاح من الحرير الهندى

الموشى بزركشة من خيوط القصب . . وكانت ترقى عربة أنيقة ، انطلقت بها من أمام متجر « سوز » ، فهفا حسنها بقلبه ، وتملك عواطفه ، حتى إنه لم يتورع عن أن يسأل عاملا كان يقف أمام المتجر عنها . . وعرف الاسم ، ولكنه لم يقو على المضى فى جرأته كى يسأل عن العنوان . .

وظل يفكر فيها ، حتى رآها ثانية . . وكان فى مسرح « الفاريتيه » ، مع صديقه « جاستون » — الذى تقول وقائع القصة الأصلية نه لم يكن سوى « أوجين دوجازيه » ، ابن ممثلة ذائعة الصيت فى ذلك العهد — حين وقعت عيناه على « مرجريت » وقد أطلت من إحدى المقصورات بوجه مشرق ، وفى يدها باقة من زهور « الكاميليا » الغالية .

وما زال « أرمان » بصديقه حتى رضى بأن يمهد له سبيل التعرف إليها . فلم ينتصف ليل اليوم نفسه ، حتى كانا يسعيان إلى دارها ليتناولا العشاء على مائدتها . .

* * *

ووجداها تعزف على البيانو ، وقد جلست فى « روب دوشامبر » حريرى أبدى مفاتنها ، حتى سلب بهاؤها لب « أرمان » . . وبدت له على غير ما بدت لسواه . . صحيح أنه قرأ على ملامحها النزعات الجامحة ، والنزوات الفوّارة ، والشهوة المستعرة . . ولكنه فى الوقت عينه رأى أنها كانت فى باكورة الخطيئة ، وأن زلتها لم تقض على براءتها تماماً ، وإنما ظلت روحها تبدو — تحت أدران الجسد المدنس — طاهرة ، كجذوة من نار تحت ركام من رماد ، يكفى القليل من النبش والتهوية لإذكائها . .

وإلى جانب المدفأة كان يقف شاب وجيه أنيق من المترفين حملة الألقاب . . كان « كونت » من المدللين فى هواها ، ولكن حديثها ولهجتها أطلعا « أرمان » على أنها لم تكن تعير الشاب المترف كثير اكتراث ، حتى إنها لم تتشبث ببقائه ، حين هم بالانصراف . . فلما لامتها صديقتها

« كليمانس » وذكرتها بعطائه وبذخ هداياه ، قالت فى ضيق :

ـ لو قارنت ما يهبنيه بما أحتمله منه ، لتبينت أننى أهبه متعة التردد علىّ بأزهد الأثمان . . ولو أننى تقبلت كل محب وتفرغت لمجاملته ما وجدت من الوقت ما يكفى كى أتناول طعامى . .

وانتقل القوم إلى مائدة العشاء . . وفجأة ، أصابتها نوبة من السعال الحاد ، فقد كان الداء يسرى فى صدرها . . حتى إذا استفحلت النوبة ، انسلت « مرجريت » فى هدوء إلى مخدعها كى لا تعكر على صحبها صفوهم . . وظل الجو الصاخب المثل يسود المائدة ، ويسيطر على الحضور اللهم إلا « أرمان » ، الذى بقى واجماً يرتقب الغانية ، فلما طال غيابها ، نهض فى إثرها . .

* * *

وألفاها منكبة على وجهها فوق أريكة . وقد عرت صدرها ، وألصقت إحدى يديها فوق موضع قلبها . . بينما استقر على منضدة أمامها إناء فضى امتلأ إلى نصفه بماء سرت خلاله خيوط من الدم . .

وذاب قلبه أسى وإشفاقاً . .

وفى هذا الجو ، نحى كل منهما الأستار التى كان يسدلها على قلبه . . وتفاوضا فى ميثاق الغرام . . قال لها :

ـ لشد ما أحبك !

قالت :

ـ فليكن ! . . لو أنك تعاهدنى على أن تستجيب لرغباتى دون سؤال أو لجاج ، لصار من المحتمل أن أحبك . . إننى أحرص على أن أظل حرة أفعل ما يروق لى دون أن تحاسبنى فى شىء . . لطالما تقت إلى عشيق شاب ، لا يسعى لفرض سلطانه علىّ ، ولا يوسعنى ريباً ، أو يسألنى حقاً . . ولكن الرجال اعتادوا ألا يقنعوا . . فما إن يفوزوا بما كانوا

يصبون إلى نيله مرة ؛ حتى يرهق الواحد منهم صاحبته ؛ إذ يروح يحاسبها عن حاضرها ، وماضيها ، وربما تمادى فحاسبها عن المستقبل . . فإذا تمكن ، سعى إلى فرض سلطانه عليها . لا تزيده استجابتها إلا جشعاً . . ومن ثم ، فإن شئت أن أتخذ خليلا . فلا بد لى من أن أبحث فيه عن ثلاث صفات : الثقة ، والطاعة ، والكتمان !

ووعدها ، فلم تزد على أن قالت :

— سنرى ! . . فيما بعد ! . .

ولكن صبابته لم تكن تقوى على الصبر ؛ فضمها إلى صدره وهو يتساءل لم لا يكون الليلة ؛ ولكنها أفلتت من أحضانه ، ووضعت فى عروة سترته زهرة حمراء من زهور « الكاميليا » . . وكان عليه أن يفهم ! . . كانت تحمل دائماً زهور « الكاميليا » البيضاء ، فيما عدا ثلاثة أيام من كل شهر . . أيام الحيض الشهرى ! . .

وسألها وهو يحتضنها فى لهفة :

— فمتى أعود ؟ . .

— حين تغير هذه « الكاميليا » لونها . .

ولكنه لم يقنع ، فقالت :

— فيما بين الحادية عشرة ومنتصف الليلة المقبلة . .

* * *

بقى أن نعرف — قبل المضى فى قصتنا شيئاً عن ماضى البطل وماضى البطلة . . وخير مرجع فى هذا ، هى القصة الأصلية ، الحقيقية . . قصة « دوما » و « ألفونسين » . .

من أعاجيب الحياة ، أن « ألفونسين » التى تهافت الرجال على إرضائها وكسب ودها فى شبابها القصير ؛ استقبلت حين هبطت إلى العالم أسوأ استقبال . . ككل قادم غير مرغوب فيه . .

كان أبوها فلاحاً من أهل قرية « سان جرمين وكلير فى » — بمقاطعة « نورماندى » — وكذلك كانت أمها . . وكان كلاهما جميلا ، فمزجت الأقدار جمالهما وعتقته ، ثم سكبته فى « ألفونسين » ، حين ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٢٤ .. ولكن أباها لم يفرح بمقدمها ، لا ولم تسعد به أمها . . فلقد سبقتها ابنة أخرى للزوجين ، وكان الرجل يصبو إلى ولد كعادة أهل الريف فى كل صقع . . لذلك صب جام غضبه على زوجته ، وكأنها كانت المسئولة عن ذلك ، وراح يوسعها اضطهاداً وإذلالا ، حتى انفصلت عنه ، وبارحت داره تحمل «ألفونسين» وتجر ابنتها الأخرى..

ولكن الأم المسكينة ماتت وفتاتنا فى الثامنة من عمرها ، فرُدت الصغيرة إلى دار أبيها . . وكانت أكمامها قد بدأت تتفتح عن زهرة فاتنة ، أعجب الرجل بجمالها ، فسولت له نفسه الخبيثة أن يستغلها فى أغراض خسيسة . . حتى لقد دفع بها — ولما تتم الرابعة عشرة من العمر — إلى العيش مع صديق له أعزب ، بالقرب من قريته ، يدعى « بلانتييه » . .

ولم تحتمل « ألفونسين » — الزهرة الناضرة — عشرة العجوز السكير ، ففرت من داره لتعمل كخادم فى أحد الفنادق الصغيرة ، ولكن أباها تدخل مرة أخرى فى تاريخ حياتها ، فصحبها إلى باريس . .

وعاد إلى القرية بدونها . . .

* * *

وكان عليها أن تعمل وتتكسب فى باريس . . فاشتغلت فى مغسلة « مدام توين » فترة ، تشقى بغسل الملابس وكيها . . ثم عملت فى متجر للأزياء . . وراحت تتقلب على الأعمال المتباينة ، حتى انتهى بها المطاف إلى صالة ومطعم من أوكار الهوى . . ولكنها لم تبق هناك طويلا ، ففقدت عملها ، وتضورت جوعاً ، وراحت تهيم فى طرقات باريس ، لا يدر عليها جسدها ما يكفى لغذائها !

وفى تلك الفترة التى بها « نستور روكيبلان » ، وكان كاتباً ذائع الصيت ، ومديراً لفرقة مسرحية مشهورة . . رآها ذات ليلة تلتف فى أسمالها ، وقد راحت تحملق فى بطاطس مقلوة بدت خلف نافذة أحد المطاعم . . وراعه ما تراءى على وجهها الناحل من شقوة ، وما زخرت به نظراتها من جوع وتمن يصده الحرمان ، فأشفق عليها ، وابتاع لها ما اشتهت نفسها . .

ولأول مرة ، وجدت « ألفونسين » رجلا لا يسألها ثمناً لصنيعه . .

أما هو ، فقد أذهله جمالها ، فلم ينس وجهها . لذلك ، شدما كانت دهشته حين رآها بعد شهور فى « صالون » فخم ، وقد تجلت فى أبهى زينة ، وأفتن مظهر . . يطبع الذوق السليم والتناسق زيها وزينتها ، ويأخذ الحضور منها حركة محتشمة ، فيها وقار العظيمات ، ومهابة الأميرات ، حتى لكأنها ولدت فى أرقى الأسرات . .

وعلقت بها أنظار سيدات المجتمع العالى ، بينما كان « الدوق دوجيش جرامون » يقدمها باسم الآنسة « مارى دوبليسى » . .

* * *

كانت إذ ذاك فى السابعة عشرة من عمرها — وكانت أيام المحنة والشظف قد ولت ، إذ صقلتها قسوة الحياة ، وعلمتها التجارب كيف تغزو قلوب وجيوب الكبراء ذوى الثراء والألقاب ، الذين فتنهم جمالها ، فتهافتوا عليها تهافت الفراش على مبعث الضياء . .

وكانت قد خبرت الرجال ، وعرفت كيف تعاملهم وتتدلل عليهم ، كى تذكى أوار الشهوة المستعرة فى صدورهم . . حتى لنروى أن « الكونت » — الذى وجده « أرمان » ، فى صحبتها فى أول ليلة زار فيها دارها — كلف بها إلى حد التهوس ، فبدأ فى التزلف إليها بأن أرسل لها صندوقاً يضم اثنتى عشرة برتقالة ناضجة شهية ، لفت كل منها فى ورقة مالية من فئة ألف فرنك فى وقت كان للفرنك فيه قيمته ! . . ولم يرفق

هديته بشيء ينم عن شخصيته ، فظلت «ألفونسين» تجهله حتى قدم لها فى عيد ميلادها هدية ثمينة أرفقها بخطاب استأذنها فيه كى يزورها فى اليوم التالى..

وقبلت « ألفونسين » زلفاه وهداياه الثمينة ، ولكنها كرهت فيه أنه كان أقرب إلى « أغنياء الحرب » فى عصرنا هذا . . فظاً ، صلفاً ، مستهجن السلوك . . وظلت تقاوم نفورها ، وتروّض نفسها على تقبل صحبته ، حتى كانت ذات ليلة وهما يجلسان فى إحدى مقصورات « الأوبرا » ، إذ راح يقهقه بصوت منكر جعل الأنظار تتجه صوبهما فى استهجان . . إذ ذاك ، تداعى جلد « ألفونسين » وصبرها ، فغادرت المقصورة واعدة أن تعود . . ولم تعد إلى « الكونت » بعد ذلك !

وكانت حياتها الجديدة قد بعثت فى نفسها هوايات جديدة لم تكن الفتاة اليتيمة المحرومة التى عانت الشقاء فى قرية « سان جرومين » لتحلم بها . . شغفت بالميسر ، فالتقت على موائده بالدوق الذى كان فى القصة غريماً لأرمان دوفال . . وأولعت بالسباق فجمعها بالكونت « إدوار دوبيرجو » الذى لم يحجم عن أن يعقد قرانه عليها . . ولكن زواجهما لم يستمر طويلا ، وكان زواجها الأول . . والأخير !

والثابت أنها كانت على غرام بالموسيقى النمسوى الخالد « فرانز ليست» فى أواخر عمرها القصير . ولكن ما عرف عن هذه العلاقة قليل ! . .

* * *

هذه كانت الظروف القابعة خلف شخصية «مرجريت جوتييه» فى القصة .. فلئر ما يقابلها عند «أرمان دوفال» .. أو « ألكسندر دوما» ..

كانت حياته قبساً من البوهيمية منذ بدايتها . . فلقد كان أبوه « ألكسندر دوما » الكبير غارقاً فى البوهيمية حتى ذقنه ، وكان يحلو له أن يزهو بأنه أنجب نيفاً وخمسمائة طفل . . ولعله مغال فى ذلك ، ولكنه برغم بدانته ، وغلظة قسماته — إذ كان أقرب شبهاً إلى الزنوج ، وكانت

جدته زنجية فعلا — كان موفقاً فى علاقاته الغرامية كل التوفيق ، فما كانت تستعصى عليه امرأة ، حتى استمرأ الحرام والدنس . . وما كان معتزماً أن يتزوج ، لولا أن عمدت إحدى عشيقاته يوماً إلى ابتياع كل ديونه ، ثم خيرته بين الزواج والسجن استيفاء لتلك الديون . . وكان كلما تقدمت به السن أمعن فى شغفه بالنساء ، وازدادت فضائحه ، حتى لقد دخل عليه صديق فى أصيل ذات يوم ، فإذا به فى صحبة ثلاث فتيات ، اعتلت إحداهن ركبتيه ، واستلقت أخرى عند قدميه ، ووقفت الثالثة خلف مقعده وقد انحنت عليه وألصقت شفتيها بشفتيه . . وقد تجردت ثلاثتهن من معظم ثيابهن !

هكذا كان « دوما » الأب مولعا فى الإثم . . وكان « دوما » الابن ، ثمرة إحدى علاقاته الحرام ، مع ضحية من الساذجات البائسات تدعى « كاترين لابى » . . كانت عاملة متواضعة ، فأوقعها فى شراكه ثم هجرها بعد أن أنجبت ثمرة الخطيئة . . وفتح الابن عينيه على الحياة فإذا أصله ومنبته أول ما طالعه فيها ، فانطوى على نفسه تفرى الذلة قلبه ، حتى لقد كان فريسة للهزال والوجوم والغباء فى مراحل دراسته الأولى . . ولكنه لم يكد يبدأ دراسته العليا ، حتى تحرر جسمه وعقله من هذه القيود ، فاستكملا نموهما . . غير أنه لم يستطع يوماً أن يحرر نفسه من الأسى والألم لمنبته ، حتى بعد أن اعترف أبوه به . . فلقد احتقر هذا الأب وازدراه !

أما وقد ألممنا بهذه الظروف ، فقد آن لنا أن نرتد إلى القصة . .

* * *

اندمج « أرمان » و « مرجريت » فى غرام عنيف ، متأجج حيناً ، عاصف أحياناً ، كأنه الإعصار الجائح يستبد بالشابين فيهز كيانيهما فى غير إشفاق ويكاد يفصص ضلوعهما . .

وكان حبهما على عنفه خالصاً ، سداته الوفاء ، ولحمته التفانى ،

فأيقظ قلب الغانية وضميرها ، فإذا هى ترتاع لحياتها الماضية ، وتود الفرار منها . .

ولكن « أرمان » كان محدود الموارد — بل فقيراً — وكان لابد للغانية من مال تنفق منه وتستغله فى الاحتفاظ بالمستوى الذى استمرأت العيش فيه . . لذلك استبقت علاقاتها بالكونت والدوق فى الخفاء . . وكانت فى الليالى التى يزورانها فيها تنتحل الأعذار للتهرب من لقاء « دوما » واستقباله ، كما كانت أحياناً تستقبله بعد منتصف الليل ، على أن يبرح الدار مع أول فلول الظلام الهارب . .

غير أن « أرمان » لم يكن بالذى يسهل خداعه .. وفى ذات ليلة ، أرسلت تزعم أن الطبيب ألح عليها بأن ترتاح ، فرأت أن تأوى إلى فراشها مبكرة . . ولكن الشك حال دون اقتناعه ، فوقف يرتقبها فى ميدان « الشانزليزيه » ، حتى إذا لم يرها ، وانقضت أربع ساعات على موعد مرورها فيه ، راح يطوف بالأماكن التى اعتادت التردد عليها .. وإذ لم يعثر عليها حتى الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء ، سعى إلى دارها ، متسلحاً بالمفتاح الذى أعطته إياه للباب الخلفى . . ولكن حارس الدار أنبأه أن لا أحد بالمسكن .

وفى سورة الغيظ والحنق ، راح يذرع الرصيف المقابل للدار ، يرقب الباب والنوافذ . . ولما انتصف الليل ، بهت إذ رآها تقبل مع أحد خلانها فى عربة مقفلة . . وراح الأسى يفرى فؤاده .. وظل يرتقب انصراف الخليل حتى إذا حان الفجر ولما ينصرف ، أوى « أرمان » إلى مسكنه محزوناً مقهوراً . .

* * *

وبادر فى منتصف النهار التالى إلى دارها يحاسبها ، وقد نسى الشروط التى اتخذتها عليه إذ أبرما ميثاق الهوى . . غير أنه سرعان ما اقتنع بما ساقته

من ظروف ، وهفا مرآها بقلبه المشوق ، فلم يلبث أن ارتضى الغفلة ، وتقبل الأكاذيب قبول الاقتناع ، فعوضته بسهرة مستعرة الأجيج ، أحرقا فيها نفسيهما بخوراً فى محراب الغرام !

واندفعا بعد ذلك فى هواهما اندفاعاً جنونياً ، لا يأبهان لحال ، ولا يكترثان بالناس ، ولا يرحمان نفسيهما من العاطفة الهوجاء . . حتى أصبحا موضوع أحاديث باريس . .

ولكن القدر كان لهما بالمرصاد ، فساق السل يخترم صدر « مرجريت » ، يضاعف من وطأته انغماسها فى الحب العنيف مع « أرمان » .. وسلط الدائنين على العاشقة التى هجرت ذوى اليسار والمال ، وأصمت أذنيها عن طرقاتهم على بابها . .

وكان لا بد لها من الفرار وإلا انساقت للإغراء .. إغراء الماضى تعززه الحاجة الماسة إلى المال . . فحملت « أرمان » على أن يصحبها إلى الريف ، حيث خيل إليها أنها ستسعد وتسعده معها . .

* * *

وترامى النبأ إلى والد «أرمان» : إن ابنه غارق فى غرام آثم جعل اسمه على كل لسان ، فهالته الفضيحة ، لا سيما أنها كادت تقف فى طريق زواج ابنته . . أخت الشاب . فسعى إلى الغانية يتوسل إليها أن تحل ابنه من هواها ، إشفاقاً على سمعته ، ورحمة بابنته التى قد يتخلى عنها خطيبها إزاء الفضيحة ، وضناً بمستقبل الابن أن يحترق فى أتون الحب المستعر . .

وحاولت أن تراجع الأب . . وعز عليها حبها واستعطفت . . ثم دفعها الإخلاص والوفاء للشاب إلى أن تذعن لتوسلات الأب . .

وأبى الشاب أن يصدق أنها تنصرف عنه ، وكانت هى الأخرى تدرك أنه لن يصدق ، فدفعها الإمعان فى الإخلاص ، إلى أن تتظاهر أمامه

بالهجران والتنكر لغرامهما ، فتحولت فجأة إلى نزواتها السابقة ، وزلاتها القديمة ، والحياة التى شاءت أن تهجرها وتتلخص منها وتنساها . . واندفعت فى يأس وقد أثقلت الحسرة قلبها ، ولكنها ظلت تحرص برغم نوازع الهوى ، على أن تتظاهر بالتنكر لحبيبها « أرمان » دون أن تعنى بإيضاح سر تحولها المفاجىء . .

وما لبث اليأس أن استولى على فؤاد الشاب ونفسه ، وساءه من حبيبته الغدر والخيانة ، فرحل عن الريف بدوره . .

* * *

ولكن صحة « مرجريت » لم تكن لتحتمل الحياة العابثة الصاخبة ، فاستفحل بها الداء . . وراح السل ينهش صدرها ، حتى بان على محياها واضحاً لا سبيل إلى إنكاره . .

وكانت ديونها تتراكم باطراد . . وانحدرت حتى لقد صارت مدينة لبواب دارها ولخادميها . .

وراح الجسد المشتهى يتداعى رويداً رويداً . . وكانت باريس تموج وتزخر بمواكب اللهو والمرح فى أحد الأعياد ، حين طرق طارق باب « مرجريت » . . ولم يكن هذا الطارق طامعاً من راغبيها ، ولا صديقاً ممن بقوا على الوفاء لها . . ولكنه كان الموت يسعى لاقتطاف الزهرة التى عاشت بين الزهور . . وماتت وهى فى عمر الزهور !

ماتت وقد تجاوزت العشرين بقليل . .

وعلى الحطام الذى تبقى منها ، عرف « أرمان » ، وكان قد جاء مهرعاً ليودعها ، حقيقة ما جرى . . عرف سر تضحيتها .

* * *

ونعود مرة أخيرة إلى القصة الأصلية . . فلقد قيل إن « دوما » أحدث شيئاً من التغيير فى نهايتها ، ذرًّا للرماد . .

قيل ان الذى أغرى « ألفونسين » على هجر « دوما » لم يكن أبوه ، وإنما كانت صاحبتها « كليمانس » — أو « برودانس » كما فى الرواية — فقد هالها أن تضحى الفتاة بعشاقها ذوى الثراء والألقاب ، وأن تنزوى فى الريف قانعة بحب شاب متواضع الدخل ، لا يستطيع أن يكفل لها المستوى الذى اعتادت العيش فيه ، مما جعلها ترزح تحت أعباء الديون المتراكمة .. فلما لم تصغ الفتاة لنصح صاحبتها ، تحولت هذه تضرب على الوتر الحساس . . وتر الحبيب ومستقبله . . فمضت تردد فى أذنيها أنها تصرف الشاب عن السعى ليكفل لنفسه مستقبلا طيباً ، وأنها تجنى عليه بحبها . .

وفى الوقت نفسه ، كان « دوما » ينشد كل الوسائل كى يتيح لحبيبته الحياة التى تلذ لها . . فاستدان ، ورزح تحت ركام الديون . . واستعان بالميسر . . ثم فطن لحالها فأدرك أنها تضحى برفاهيتها من أجله ، وأدرك أنها تتكبد الكثير إبقاء على صلتها به . . وأدرك أيضاً ، أن لا مخرج إلا بأن تنطلق الغانية فى ميدان المغامرات لتعيش و . . تنفق عليه . وهذا ما كان يربأ بنفسه أن ينحدر إليه ، ومن ثم بادر إلى القطيعة والهجران . .

واندفعت الغانية فى حياتها الأولى ، والسل يأكل ما تبقى من حيويتها ، والدائنون يطاردونها ويعكرون صفوها . . حتى اشتد بها النحول ، وشف جسمها وغدت أقرب ما تكون إلى طيف لمارى دوبليسى فاتنة « الدوقات » و « الكونتات » ورجال باريس أجمعين . .

وماتت فى فبراير سنة ١٨٤٦ . . فهى إذن كانت فى الثانية والعشرين من عمرها . .

ألا ما أقصر الحياة . . وكم هى حافلة برغم قصرها ! . .

لقد بدأت « ألفونسين » تألقها فى سماء المجتمع وهى فى السابعة عشرة من عمرها . . وماتت فى الثانية والعشرين . وفى هذه الأعوام القلائل ، بهرت مجتمعات باريس ، وتقلبت فى ألوان من النعيم ما كانت لتحلم بها

وهى تعانى قسوة أبيها وخسته فى قرية « سان جرمين » . . أو وهى تكافح من أجل العيش ، وتعانى الإرهاق فى مغسلة « مدام توتين » . . أو وهى تهيم فى شوارع باريس جائعة محرومة . . أو وهى تقف أمام نافذة المطعم الذى قابلها عنده « نستور روكيبلان » ، تحدق فى نهم فى قطع البطاطس المقلوة ، وكأنها تشتهى أمنية غالية عزيزة المنال . .

فى هذه السنوات القلائل ، تقلبت بين أحضان الكبراء ، وتدللت عليهم ، وركلت قلوبهم وحبهم فى استعلاء وازدراء . . وفى هذه السنوات ، استحالت اليتيمة الشريدة التى جنى عليها أبوها قبل أن تجنى عليها الأقدار ، إلى نجمة مشرقة فى أرقى مجتمعات باريس ، تغبطها الكبيرات والشهيرات على جمالها وفتنتها ، وعلى مسلكها وتصرفها ، وعلى زيها وزينتها ، فيقلدنها . . يقلدن ابنة الريف والفقر ، وربيبة الأرصفة والخطيئة والدنس ، وهن بنات الأصول العريقة ، والبيئات السامية ، والقصور المنيفة . .

ولكنها الحياة . . وكفى ! . .

٤

لهذا الكتاب قصة معى . .

قرأته منذ ثلاثين سنة ، وأنا فى سن يسبح فيها العقل فى بحار من الخيال ، تحيط بها آفاق من العواطف والنزوات . .

وكان هذا أول لقاء بينى وبين « كارمن » . . وظل طيفها يداعبنى ، ويراود خيالى ، حتى حان اللقاء الثانى بعد خمس سنوات . . إذ قرأت القصة مرة أخرى . وكان ذهنى قد نضج ، وعواطفى قد استقرت بعد تبلبل واضطراب ، لا لأننى كنت قد جاوزت مرحلة التطور والتبلبل التى يمر بها كل شاب بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولكن لأننى كنت قد أقبلت على القراءة والاطلاع بنهم يفوق ما كان لدى أقرانى . فكانت نتيجة القراءة والاطلاع معرفة ونضوجاً ساعدا على نوع من التسامى الروحى والذهنى والعاطفى . .

وفى هذه المرة ، عرفت « كارمن » من جديد . . فى صورة غير الصورة التى ارتسمت فى خيالى بعد المرة الأولى . .

وانقضت سنوات ، ثم التقيت بالغانية النورية مرة ثالثة ، وعكفت على ترجمتها إلى العربية ، لتتولى نشرها دار كانت تصدر روايات أسبوعية رخيصة الثمن . .

وفى هذه المرة أيضاً ، خرجت بصورة منقحة للنورية الإسبانية فاتنة الرجال . . فلما رأيتها على الستار الفضى بعد ذلك ، امتدت ريشة الفكر بتنقيحات جديدة للصورة . .

هذا التطور المستمر فى صورة البوهيمية الغاوية ، هو الذى حفزنى على تقديمها هنا . .

كارمن

بروسبيرمير يميه

لم تهتز الدنيا لمسرحية قدر ما اهتزت حين قدم « بيزيه » قصة النورية الفاتنة ، الغاوية « كارمن » إلى عالم « الأوبرا » فى سنة ١٨٧٥ . . فقد عجزت البوهيمية عن أن تفرض سحرها على النقاد ، فإذا هم يقابلونها بعاصفة من الاستهجان والاستنكار ، ويعيبون عليها أنها إباحية ، فاجرة . . وطغى قصفُ رعد النقاد على رنين الراقصة النورية . . وأعشى بريق صواعق المستهجنين أعين الناس عن رؤية بريق الغواية الذى كان يشع من جسد الغانية وهى تتلوى فى رقصاتها الخليعة . .

ودفعت الأنواء مسرحية « الأوبرا » فحطمتها على صخرة النقد الساخط . .

ولكن العاصفة لم تلبث أن هدأت ، وانقشعت الغيوم . . وبان أن المسرحية لم تغرق إلى القاع ، فسرعان ما عادت إلى « الأوبرا » . . وكانت الظروف قد تغيرت ، والعقليات تطورت ، فإذا بها تنتزع الإعجاب . . ونجحت ، ، وتخاطفتها مسارح العالم ، لتزداد نجاحاً وتألقاً ، حتى أصبحت من المسرحيات العالمية . .

وخلعت من نجاحها على « بيزيه » قسطاً . . وعكست من تألقها على اسمه ، فزادته مجداً . .

ولكن — وهنا وجه العجب — كان العالم ظالماً ، حيث أراد الإنصاف . . فما كان « بيزيه » صاحب « كارمن » ، ولا كانت المسرحية هى الإطار الأصلى الذى طلعت فيه الغانية النورية الإسبانية على العالم . .

إنما كان صاحبها الأصلى « بروسبير ميريميه » . . وكان الإطار

الأصلى رواية قصيرة — أو قصة طويلة — فى أسلوب نثرى مسترسل ، خال من الكلفة والاصطناع . .

ذلك لأن « ميريميه » لم يكن أديباً ، منقطعاً للأدب كمهنة ، وإنما كان من علماء الآثار والكشف عن مخلفات الأقدمين . . غير أن أبحاثه الأثرية ، والتقارير والدراسات التى كان يضعها عن صيانة الآثار القومية فى فرنسا ، لم تحل بينه وبين عشق الأدب . . فإذا هو يجد راحة فى كتابة المقالات والقصص ، وإذا هو يجد فى التأليف تسرية وترويحاً من عناء البحوث الجافة .. ثم ، إذا هو يحدث تجديداً فى الأدب الفرنسى بأسلوبه المبتكر ، حتى اعتبر من كبار الأدباء المتفردين بأساليبهم الخاصة فى ذلك الأدب . .

وإذا كان عجيباً أن يعشق رجل الآثار الأدب ويبرز فيه . . فأعجب منه أن « ميريميه » — الذى ولد فى باريس فى سنة ١٨٠٣ — لم ينشأ التنشئة التى تجعله من المهتمين بالآثار ، وإنما كانت دراسته موجهة إلى تمهيد الطريق له كى يعمل فى المحاماة والقضاء . . غير أنه لم يكد يتخرج حتى آثر العمل فى وظيفة مدنية ، على العمل القانونى . . وطاب له أن يقوم بدراسة الآثار ، فإذا به يوغل ويتعمق ، ويتفقه . . وظل صابراً يتربص ، حتى سنحت له الفرصة فى سنة ١٨٣٥ ، إذ خلا خير منصب يلائم مزاجه وطباعه وروحه . . منصب « المفتش العام للآثار التاريخية » بإدارة « الفنون الجميلة » بوزارة الداخلية الفرنسية .

* * *

على أن « ميريميه » كان نزاعاً إلى الأدب ، حتى فى أشد لحظات انغماسه فى دراسة الآثار القديمة . . ففى سنة ١٨٢٥ ، أصدر خمس مسرحيات غرامية ، خيالية ، رائعة ، نسبها إلى مؤلفة إسبانية ، زعم أنها التقت بمترجم ما فى « جبل طارق » ، فعهدت إليه بترجمتها إلى الفرنسية . .

وكانت الصفحة الأولى تحمل صورة السيدة . . وكانت دهشة بالغة ، حين تأمل المدققون الصورة فإذا بها صورة « ميريميه » نفسه ، وقد توج رأسه بشعر مستعار ، وارتدى ثوباً نسائياً إسبانياً ! !

إلى هذا الحد كان « ميريميه » يجهد فى التوارى عن الأضواء ، حتى لينسب دوره لسواه . . لشخصيتين من ابتداع الخيال . . شخصية المؤلفة الإسبانية المزعومة ، والمترجم الفرنسى المزعوم ! . . ليس هذا فحسب ، بل إن ازوراره عن الشهرة والمجد ، كان من أهم العوامل التى ابتلته بكثير من الأعداء ، فلم يكن له من الأصدقاء سوى نفر يكاد يعد على الأصابع . . وقلة من هذا النفر من فهمه ، مثل الروائى الفرنسى « ستندال » ، الذى أدرك حقيقة الرجل الكامن خلف المظهر المترفع الذى كان يبدو فيه . .

ولعل هذا الوضع — كثرة الأعداء المتجنين ، وقلة الأوفياء المقدرين — ولد فى نفس « ميريميه » عقدة نفسية ، إن لم نقل عقداً . . ففى إحدى الأزمات النفسية ، اندفع يصارح « ستندال » — فى حرارة غريبة ، لم يعهدها الصديق منه — بأنه كاره للمجتمع الذى كان يعيش فيه ، وأن الوسط الوحيد الذى أحس يوماً بارتياح للإقامة فيه ، هو ذلك الذى كان يتألف « من قوم — صرحاء ، بعيدين عن الكلفة والتظاهر — عرفهم مرة ، من زمن بعيد ، فى أحد الفنادق القروية الصغيرة فى إسبانيا ، ومن مكاريين يعملون على بغالهم ويجرون وراءها ، ومن فلاحات الأندلس الساذجات » !

* * *

وبعد عامين من إصدار تلك المسرحيات الخمس ، المنسوبة إلى المؤلفة الخيالية ، أقدم على عمل أكثر إنكاراً للنفس . . إذ أصدر مجموعة من الأغانى الشعبية والأناشيد القومية ، زعم أنها من « الليريا » ، وهو الاسم

الذى كان يطلق على المنطقة النمسوية التى كانت تضم فيما مضى مقاطعات « كارينثيا » و « كارنيولا » و « كوستنلند » . .

وكانت أول مرة عالج فيها « ميريميه » القصة فى سنة ١٨٢٩ ، حين كتب « ماتيو فالكونى » ، وهى قصة تدور حول تقاليد الثأر والانتقام لدى أهل جزيرة « كورسيكا » . .

وهكذا ، كان إنتاج « ميريميه » الأدبى مستمداً من وحى البلاد التى زارها فى الخارج ، لا من فرنسا . .

ذلك لأن دراساته الأثرية كانت تحمله على قضاء فترات طويلة من حياته فى الخارج . . فزار اليونان ، ودالماسيا ، وإيطاليا . . حتى إذا كانت سنة ١٨٣٠ ، قام بأولى بعثاته العديدة إلى إسبانيا التى أحبها وأولع بها . . وكان أينما جاس خلالها ، التقط معالم الحياة فيها ، فانطبعت فى نفسه . . تماماً كالفنان ذى الروح المصقولة بالفطرة ، وذى الحس المرهف بالطبيعة . . ولا عجب ، فقد كان وليد زواج جمع بين اثنين من الرسامين الموهوبين ، اكتسبا شهرة فى دنيا الفن . . أب فرنسى ، وأم تجرى فى شرايينها بقايا دماء إنجليزية . . وكان للاثنين زميل ثالث كأنه القرين الذى لا غنى عنه . . ذلك هو الأديب الإنجليزى المعروف « هازليت » . . وبين هؤلاء الثلاثة ، نشأ « ميريميه » ، فإذا هو فنان بالسليقة . . فنان استعاض عن الفرشاة بالقلم !

* * *

ولعل « ميريميه » لم يتغلب على العقد النفسية التى تكونت فى نفسه فنفرته من الناس ، وأفقدته الثقة فى الصداقة ، إلا حين ذاق جدوى الصداقة ، ونعم بنتائجها التى جعلته نديم الأسرة المالكة الفرنسية . .

وله فى ذلك قصة مستملحة . .

فى أحد أسفاره فى إسبانيا ، التقى بسيدة من علية القوم ، هى

« الكونتيس ديلامونتيجو » ، فسرعان ما أنس إليها ، وأولاها وده ، واعتز بصداقتها . .

وشاءت الصدف أن تصبح « أوجيني » ، ابنة الكونتيس — بعد ستة عشر عاماً — وصيفة مقربة لدى الإمبراطور « نابليون الثالث » . . وكانت « أوجيني » من الأشخاص القلائل الذين اصطفاهم « ميريميه » لصداقته ، كما كانت تمتاز عن سواها ، بأنها كانت موضع سره واعترافاته . . لذلك لم تلبث أن مهدت الطريق لميريميه إلى القصر الإمبراطوري والأسرة الإمبراطورية . . واستطاع هو من ناحيته أن يكسب قلوب أفراد هذه الأسرة بمواهبه ، فغدا مستشاراً للإمبراطور ، وأمده بالعون والمساعدة في وضع كتاب عن « قيصر » . .

كذلك أصبح سميراً للإمبراطورة ، يجلس في حضرتها ليقرأ عليها وعلى نساء الحاشية قصصه بصوت عال . . واستغلت هذه الصداقة كل ما في قلبه من ولاء ، حتى طغت على رزانته ، وحكمته ، وحجاه ، إذ استدرجته إلى الانغماس في المؤامرات الدبلوماسية الدقيقة ، التي أثارت العداوات القديمة ، وأهاجت ثائرة خصوم الحكم الإمبراطوري . . وهي حماقة لم يسبق لميريميه الحكيم العزوف عن الناس ، أن انساق إليها قبل ذلك إلا مرة واحدة . وبدافع من صداقة عزيزة أيضاً . . فلقد اتهم « كاروتشي ديلا سوماجي » — وكان صديقاً قديماً له — بسرقة وثائق ومستندات ثمينة القيمة ، من مكتبات الدولة ، فاندفع « ميريميه » يدافع عنه . . وتمادى في ذلك حتى انتهى به الأمر إلى أن يشارك صديقه السجن فترة !

* * *

ومن حق القارئ بعد هذه الصورة التي قدمناها له لنعرفه بكاتب قصة « كارمن » ، أن يتساءل : كيف استطاع شخص حكيم ، رزين ، نفور يصدف عن الناس بهذا الشكل ، أن يرسم تلك الصورة البوهيمية ،

الناضجة بالغواية والإثم والفجور . . صورة « كارمن » ؟ وكيف كتب عن امرأة بهذا الأسلوب ، وهو الذى كان ينفر من الرجال ، بله النساء ؟

والواقع أن نفس « ميريميه » كانت تنطوى على ناحية أخرى ، إلى جانب الناحية التى وصفناها . . فهذه كانت شخصيته فى حياته العامة ، أما فى حياته الخاصة ، فكان « ميريميه » مغرماً بالنساء ، أحب منهن عدداً كبيراً ، وتقلب بين أحضان الشهيرات — وفى مقدمتهن الكاتبة الفرنسية « جورج صاند » — والنكرات على السواء . . ولعل الأخيرات كن أكثر استهواء له من الأوليات ، حتى إن رسائله إلى « جينى داكان » — وكانت ممن تعرف بهن فى « بولونى سير مير » — تعتبر درراً فى أدب الحب والغزل والتشبب !

* * *

وإذا كان « ميريميه » قد أدهش الكل حين أصدر مسرحياته الخمس ، وحين أتبعها بكتاب الأغانى والأناشيد كما قدمنا . . فقد أبى عندما حان أجله فى مدينة « كان » — فى سنة ١٨٧٠ — إلا أن يدهش معارفه بمفاجأة أخيرة . . إذ اعتنق المذهب البروتستانتى ، وفاء لصنيع سيدتين إنجليزيتين توفرتا على العناية به إبان مرضه . .

وخلف وراءه ثمانية عشر كتاباً ، تضمن ثلثاها تقارير رسمية ، ورسائل ، ودراسات فى الآثار ، وترجمة لبعض مؤلفات « تورجنيف » و « بوشكين » و « جوجول » ، كانت أول ما قدم إلى قراء الفرنسية من إنتاج هؤلاء الأعلام الروس . . أما الثلث الباقى من كتبه ، فتألف من عشرين رواية قصيرة وقصة ، هى كل ما سجله من وحى خياله . . وهى المعبر الذى سلكه إلى المجد الأدبى .

وأروع هذه القصص جميعاً ، هى « كارمن » ، التى نشرت للمرة الأولى فى العدد الصادر بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٤٥ ، من « مجلة

العالمين » الفرنسية . . والتى أجمع أهل القلم على أنها أروع القصص الذى يمثل الصبغة الإسبانية المحلية ، على حقيقتها خالصة من كل زيف أو افتعال . .

* * *

تبدأ القصة و « ميريميه » يجتاز هضبة « سييرا دى كابرا » الوعرة ، الكثيرة الوهاد — فى بلاد الأندلس — برفقة دليل . . حتى إذا بلغا مضيقاً مختنقاً فى أحد الدروب ، رأيا شبحاً أمسك بإحدى يديه عنان جواد ، و بالأخرى طبنجة يتراقص الشر عند فوهتها ، وقد تحفز للهرب عند أول إشارة تنذر بالخطر . .

وأجفل الدليل مذعوراً ، إذ عرف فى الرجل شريراً خطراً مرهوباً ، من المهربين . . وأدرك « ميريميه » أن الرجل مطارد ، فأشفق عليه ، وساعده ، وقدم له طعاماً وسيجاراً ، كانا خير جواز إلى قلبه . . فإذا المظهر الشرس ، الشرير ، يخفى تحته نفساً إنسانية . . « فلما جن الليل ، بدا وجهه على وهج النار التى أوقدناها ، مزيجاً من الشراسة والنبل » !

هذا هو « دون جوزيه » ، كما صوّره « ميريميه » ، تصوير الخبير الذى زار إسبانيا ، وجاس خلالها ، وعرف أشرارها . . فما أبعدها عن تلك الصورة التى رسمها « بيزيه » فى المسرحية ، والتى خالطتها طراوة أهل المدن !

* * *

ثم تنتقل القصة إلى مسرح آخر ، يسوده الجو الإسبانى الصميم . . إلى « قرطبة » ، حيث أخذ « ميريميه » يسير الهوينا على ضفة نهر « الجواد الكبير » ، والشمس مؤذنة بالمغيب . . وتكاد تشعر وأنت تقرأ الوصف ، أن كلمات الكاتب تستحيل أجنحة تحلق بك إلى هناك ، لتكون معه . . فهو يقول :

« وكان المتنزهون يستمتعون عند كل غروب ، بمنظر ذى سحر

خاص . . فقبيل انبعاث رنين أجراس الكاتدرائية إيذاناً بقداس الغروب ، اعتاد عدد كبير من النساء أن يلتقين ويجتمعن عند ضفة النهر ، فى ظلال الرصفة العالية . دون أن يجسر رجل على أن يقترب منهن . . وكان الظلام يهبط عادة مع دقات أجراس الكاتدرائية ، فما إن تنبعث الدقة الأخيرة ، حتى تنضو النسوة عنهن ثيابهن ، ويهبطن إلى النهر . . وسرعان ما تتعالى الضحكات تخالطها الصرخات فى جرس عذب رائع . . فى حين يرهق الرجال الواقفون على الرصفة العليا أعينهم ، يحاولون أن يمدوا بصرهم ليروا السابحات ، فلا يظفرون إلا بالقليل . .

« على أن المعالم البيضاء غير الواضحة ؛ كانت تتراءى وسط زرقة الماء الداكنة ، فتهفو — على إبهامها — بالعقل الشاعرى . . ومن ثم لا يعجز كل من أوتى نفحة من الخيال ، عن أن يرى فى المستحمات صورة للإلهة « ديانا » وهى تستحم وقد أحاطت بها عذاراها . . ولا يجد ضيراً من أن يتمثل نفسه فى دور « إكتيون » . .

« ولقد أنبئت أن فريقاً من الشبان المفسودين اجتمعوا يوماً على أمر فتواطوا بالرشوة إلى إغراء المنوط به دق أجراس الكاتدرائية ؛ على أن يعجل بدق أجراس قداس الغروب قبل موعدها بعشرين دقيقة ! . . ولم أحظ بمتعة الوجود عند الرصفة فى هذه الفرصة ! . . على أن المكلف بالأجراس فى ذلك اليوم — الذى كنت فيه هناك — لم يكن مفسود الذمة ، ولذا انطلقت أجراسه مع الغروب تماماً ، فلم تبق إلا فاول من نور واهن معتم ، لا يستطيع مخاوق أن يفرق فيه بين أكبر جامعات البرتقال سناً ، وأنتن عاملات المتاجر فى قرطبة ، إلا إذا أوتى عينى قط سديد البصر » !

وما كان « ميريميه » ليوفق إلى رسم هذه اللوحة الدقيقة ، لو لم يكن قد رآها بنفسه . .

* * *

وفى مساء من هذه الأمسيات ، استند « ميريميه » إلى حافة الرصفة يدخن مستغرقاً ، حين أقبلت من ناحية الماء امرأة صعدت الدرجات ، وانتهت إلى الجلوس بجواره . . وكانت الظلمة قد اشتدت بحيث عز عليه أن يتبين شيئاً من معالمها ، اللهم إلا حين انزاح وشاحها عن رأسها ، فلاحظ على الضوء الخافت المنساب من النجوم ، أنها شابة بديعة التكوين والقوام ، ذات عينين واسعتين نجلاوين . . وكان النسيم يحمل إليه طيلة الوقت شذى انبعث من حزمة من الياسمين زانت شعرها . .

ولم يلبث الكلام أن سعى بينهما . .

وجرؤ « ميريميه » فقدم إليها سيجاراً . . وقبلته !

وما لبثا أن فطنا إلى أن الرصفة خلت من روادها وقد خلصوا من نزهتهم فارتدوا إلى المدينة ، ولم يبق سواهما . . وحدهما !

وفكر « ميريميه » . . ثم أخذ يستجمع جرأته ، وينتقى كلماته ، ليدعوها إلى تتناول شىء من المثلوجات — « الجيلاتى » — فحاولت أن تعتذر فى البداية بتمتمة مستحيية خجلة ، ولكنها لم تلبث أن قبلت الدعوة .

وعلى ضياء شموع المشرب ، تبين ملامحها النورية . . قسمات بنات الغجر ، بكل ما أودعتها الطبيعة من سحر . . البشرة السمراء النحاسية ، والأسنان البيضاء كأنها اللؤلؤ المنضود ، والشعر الأسود الناعم المسترسل ، وقد انعكست عليه ظلال زرقاء ، فبدا كجناح العقاب . . والعينان النجلاوان يمتزج فى أغوارهما الحس المرهف ، والعاطفة المشبوبة ، والشهوة المتقدة ، والشراسة الوحشية . فهما وسط بين عينى الذئب الكاسر ، والقط المتحفز وقد ربض فى ارتقاب الصيد . .

على أنه لا يلبث أن يفطن إلى ناحية أخرى فى البوهيمية الحسناء ، إذ تدعوه إلى وكرها فى أحط أحياء المدينة ، كى تقرأ له طالعه وتكشف له عن حظه . .

ويتبعها . . وفيما هو يجلس إليها فى وكرها ، يندفع الباب مفتوحاً فى عنف ، ليلج رجل التفع من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بعباءة ذات لون بنى ، فلا يبين منه سوى عينيه . .

ويدور بينه وبين « كارمن » نقاش حاد عنيف ، يدرك « ميريميه » خلاله أنه محوره . . ويوجس خيفة ، فيقبض على قائمة أحد المقاعد ، تأهباً لدفع أى ضرر يحاول الرجل أن ينزله به . .

ويقترب الرجل منه ، فيتحفز « ميريميه » . . على أن الأول لا يلبث أن يتراجع خطوة ، ويصيح :

— ماذا ؟ . . أهذا أنت يا سيدى ؟

فما كان الرجل سوى « دون جوزيه » ! . . ويقول « ميريميه » فى سياق روايته :

« فى تلك اللحظة ، شعرت بالأسف يتملكنى لأننى أنقذته من السجن . . »

ذلك أن «ميريميه» كان قد فطن — عندما التقى به لأول مرة فى الجبال — إلى شرك أعده الجنود للإيقاع بالشرير ، فأنذره ونبهه . . وكان جزاؤه أن الوغد أبى أن يذكر الفضل والجميل ، وأصم أذنيه عن توسلات « كارمن » التى راحت تناشده أن يعدل عن غيه ، فلا يقتله . .

« وأخذ انفعالها يزداد حدة . . واشتد البريق الوحشى الذى كانت عيناها تومضان به ، واندفع الدم إلى مقلتيها ، واكفهر محياها ، وراحت تضرب الأرض بقدمها . .

« وأدركت أنها تحاول أن تحمله على أمر لا يود أن يقبله . . أما حقيقة هذا الأمر وكنهه ، فقد خطر لى أننى فهمتهما تماماً . حين رأيت النورية تحرك حافة يدها الصغيرة تحت عنقها من جانب إلى آخر . . وتلقى « دون جوزيه » كل جدها الطلق . المسترسل فى حرارة وتحمس ، بكلمتين

أو ثلاث مقتضبة .. وإذ ذاك ، رمته النورية بنظرة ملؤها اللوم القاتل ، ثم جلست القرفصاء ، فى ركن من الغرفة ، وتناولت برتقالة فتضدت عنها قشرتها ، وشرعت فى أكلها » !

* * *

وأخيراً ، يطلب « دون جوزيه » إلى « ميريميه » أن يرافقه ، فيقوده خلال الأزقة الضيقة شطراً من طريقه إلى الفندق الذى نزل فيه . . ولايلبث أن يرشده إلى الجسر المؤدى إلى الفندق . ثم يستدير عائداً من حيث أتى ، دون أن ينبس ببنت شفة .. ويواصل «ميريميه» سعيه إلى الفندق مهموماً ، وإن كان مرتاح النفس إلى خلاصه .. وما إن يخلع ملابسه ، حتى يفتقد ساعته ، فلا يعثر عليها !

ولا يقع بصره على ساعته المفقودة ، ولا على « دون جوزيه » ، إلا بعد شهور . إذ دفعته مهامه إلى زيارة « قرطبة » — مرة أخرى — على مضض .. فقد داخله كره نحو المدينة البديعة ، والنسوة اللاتى اعتدن الاستحمام فى نهر « الجواد الكبير » عند الغروب . .

وكان اللقاء عجيباً . .

فلقد كان الرهبان — الذين عكف على ترجمة ونسخ مخطوطاتهم الأثرية — هم الذين ردوا إليه الساعة . . . وهم الذين أنهوا إليه أنباء صديقه « الحميم ! » . . . « دون جوزيه » ! . . . وكم ساءته تلك الأنباء ! . . . كان الشقى قد عاد إلى المدينة ، لا حرًّا طليقاً يسخر من القانون والنظام وحفظتهما — كالعهد به — وإنما معتقلا ، سجيناً ، يجثم فى « زنزانة » محكمة الإغلاق ، فى انتظار إعدامه جزاء على إزهاقه عدة أنفس ، بطرق كانت كل منها أمعن فى البشاعة من سابقاتها !

وقال له من أزجى إليه النبأ :

ـ إنك مولع بدراسة أغرب المعالم فى كل بلد ، فخليق بك أن لا تفلت هذه الفرصة التى تتيح لك مشاهدة شتى يودع هذه الدنيا فى إسبانيا . . لسوف يرافقك الأب مارتنيز ليهديك الطريق إليه !

* * *

وزاره « ميريميه » فى ذلك اليوم .. وفى اليوم الذى أعقبه ، ليقول :

« . . ومن شفتيه ، عرفت الوقائع الأليمة التى أسوقها فيما بعد » ..

رواها له فى صوت هادئ ، واسترسال ، لا يتخللها سوى فترات صمت قصيرة . .

ولقد كان « ميريميه » ميالا دائماً إلى مشاهدة مظاهر الوحشية ، والمشاعر البدائية ، والغرائز الأولية التى أسدلت عليها المدنية ستاراً أخفاها فى النفس الآدمية . . وكان يستهويه ما فيها من عنف فطرى ، وقسوة ، ولكنه كان ينقلها فى أسلوب مؤدب ، يبدو به فى مظهر الناقل الذى يؤدى رسالة النقل فحسب ، غير مكترث لأى شىء آخر . . وإنا لنراه هنا يخطو إلى ما وراء « الكواليس » ، ليدع الدور الأول لدون جوزيه . . نراه يترك الخطاب للشقى الإسبانى ، فإذا « دون جوزيه » بعدذلك هو المتحدث ، و « ميريميه » المستمع المسجل للحديث . . يصغى فى استيعاب ليؤدى الأمانة ، دون أن يظهر أى شعور أو تأثر ، فهو لا ينبس ببنت شفة طيلة الوقت . . حتى نهاية المأساة !

* * *

وإذ يبدأ « دون جوزيه » الحديث ، يتطوع لسرد مأساته مع

« كارمن » . .

وتبدأ بالحديث قصة جديدة ، سلخها « بيزيه » عن القصة الأصلية التى بدأها « ميريميه » ، ليجعلها مسرحية . . إذ هنا ، يبدأ الفصل الأول من المسرحية التى اهتزت جدران دور « الأوبرا » فى معظم أرجاء العالم ، بتصفيق الجماهير لها . .

كان اللقاء الأول ، عند غرفة الحراس ، تحت أسوار مصنع للتبغ فى « أشبيلية » . . ومن الطريف ، أن « وولتر ستاركى » ذكر فى كتابه « دون جيبسى » أن هذا المصنع لم يكن من وحى خيال « ميريميه » ، بل كان موجوداً حقاً . . وقد ظل قائماً حتى رآه بعينيه حين زار « أشبيلية » حوالى سنة ١٩٣٠ . . وكان على بابه تمثال رخامى لملاك ينفخ فى بوق من الرخام . . وقد ساق « ستاركى » بهذه المناسبة ، نكتة ساخرة شائعة هناك بصدد هذا التمثال :

« إذا انبعث صوت البوق ، كان هذا إيذاناً بأن عذراء تلج المكان لأول مرة فى حياتها . . »

وكان « دون جوزيه » فى الحراسة ، حين سمع من يقول :

ــ ها قد جاءت النورية الراقصة ! . .

ويمضى « ميريميه » على لسان « دون جوزيه » . . طبعاً :

« ورفعت عينى فرأيتها ! . . وكان اليوم أحد أيام الجمعة ، فلن يقدر لى أن أنسى هذا أبداً . . كانت ترتدى قميصاً أحمر ممعناً فى القصر ، تحته جوربان من الحرير الأبيض ، تناثرت فيهما الثقوب . . وبدا حذاءاها الأحمران البديعان ، وقد ربطا بشريطين فى لون اللهب المستعر . . وكانت قد ألقت وشاحها عن رأسها ، لتظهر كتفيها ، وحزمة الزهور الفخمة البارزة من بين نهديها . . فى حين برزت من ركن فمها زهرة يانعة . .

« ومرت سائرة فى طريقها تهز ردفيها ، كمهرة من إحدى مزارع تربية الخيل فى « قرطبة » . . إن أى شخص يرى امرأة فى مثل هذا الزى — فى بلدى — لا يتردد فى أن يرسم الصليب على صدره . . يستعيذ به من شرها » !

وتمضى القصة على النسق الذى وردت عليه فى المسرحية . .

كانت تعمل مع « كارمن » فى المصنع امرأة أخرى ، أوسعتها مزاحمة فى ميدان الهوى ، وتمادت فى تحديها . . فلا تتورع النورية الشرسة عن أن تنازلها كالنمرة المهتاجة ، فى معركة حامية . . واعتقلت « كارمن » ، وعهد إلى « دون جوزيه » بحراستها ريثما يبت فى أمرها . .

ولكن الحارس ينقلب أسيراً . . أسير غواية النورية الفاجرة ، التى تدعوه إلى أن يلتقط بشفتيه الزهرة التى كانت فى فمها . . ويلتقط الزهرة فى قبلة أثملته . . قبلة أنذرته البوهيمية بأنه لن ينساها ما عاش . .

ولم ينسها قط . . لا لأنه اعتقل فى مكانها بعد هربها ، ولا لأنه حوكم وجوزى برفع الشريط الذى كان يختال به مزهواً على ذراعه ، فأعيد جندياً بسيطاً . وإنما . . لأن القدر شاء أن تظل النورية تتبعه ، ويظل يتبعها ، حتى . .

ولكن ، لنمض مع القصة لا نستبق الحوادث إلى الخاتمة . .

* * *

فى ذات مساء ، عين « دون جوزيه » — بعد أن صار جندياً بسيطاً — لحراسة باب منزل « الكولونيل » . . وهو إسفاف فى الهوان ، لا سيما والشاب ينحدر من أسرة رفيعة . . ويمضى قائلا :

« وخيل إلىّ أن أهل المدينة اتفقوا على أن يجتمعوا عند ذاك الباب كى يحملقوا فىّ ، وأنا أرسف فى الهوان . . وفجأة ، أقبلت عربة « الكولونيل » ، وقد جلس خادمه فى مقدمتها . . فمن تظننى رأيته يغادرها ؟

الفتاة البوهيمية ، فى حلة موشاة بالقصب و « الترتر » و « الخرز » ، وحذاءين أزرقين ، وزهور وخيوط ذهبية . . وفى إحدى يديها « طار » أو رق مما يستعمل فى العزف . . »

ومن ثغرة خلال سياج الحديقة ، راح « دون جوزيه » يرقب ما يجرى فى الداخل :

« كنت أسمع رنين « الصاجات » والرق . . وضحكات القوم وتصفيقهم . . وكنت ألمح رأس النورية أحياناً ، وهى تقفز أثناء رقصها ، وتدق الرق . . ثم تتناهى إلى سمعى أصوات الضباط يوجهون إليها من عبارات الغزل الوقحة ، ما كان يبعث الدم حاراً إلى وجهى . .

« فى ذلك اليوم ، عرفت الحب . . وأحببت . . أحببت النورية فى وجد !

« وظلت أعانى عذاب رؤيتها بين الضباط ساعة كاملة ، ثم انتهى الحفل . . وأقبلت النوريات يغادرن المكان إلى العربة التى أقلتهن . . وإذ مرت بى « كارمن » — أثناء خروجها — ألقت علىّ نظرة من عينيها النجلاوين اللتين خبرت سحرهما بنفسك ، وقالت فى صوت جد خفيض :

— إن القوم الذين يعشقون الشواء الشهى ، ينشدونه عادة فى مطعم « ليلاس باستيا » فى « تريانا » . . أيها الرفيق !

« وفى خفة الظبى ، قفزت إلى العربة ، وأحمل الحوذى سوطه فى ظهور البغال ، فانطلقت تحمل الجماعة البوهيمية المرحة . . إلى حيث لا أدرى ».

* * *

ويمضى « دون جوزيه » فى حديثه ، و « ميريميه » يستمع صامتاً ، ويسجل . .

ما كان «دون جوزيه» من الغباء، بحيث لم يفهم أن كلمات «كارمن» كانت تنطوى على موعد ووعد .. وما كان الإسبانى الشاب ليفلت فرصة ،

طالما اشتهاها . . لذلك وافاها فى المطعم فى الليلة التالية . . ولكنها لم تشأ أن يبقيا فى مكان عام ، يرتاده الناس ، بل ودت لو تخلو إلى الشاب ويخلو إليها . . لذلك ابتاعا بعض الكباب والشواء ، وقسطاً من البرتقال والحلوى والفاكهة المحفوظة والخمر . . ثم سارا والغانية تقود الجندى ، حتى بلغا داراً عتيقة فى « كالى ديل كانديليجو » .

وفتحت لهما الباب عجوز شمطاء من النور ، ليس أصلح منها وأليق لشخصية « خادم الشيطان » . .

وما إن اطمأن الشابان إلى خلوتهما ، حتى انطلقت « كارمن » فى ضحك نزق ، متواصل ، وكأنما مسها خبل . . وراحت تغنى لرفيقها قائلة : « أنت حبيبى . . وأنا حبيبتك » ! . . وأقبلت على الحلوى تلتهمها فى نهم الطفلة الصغيرة ، حتى إذا اكتفت ، ألقت بما بقى فى جرة الماء التى وضعتها العجوز الشمطاء فى الحجرة ، وهتفت ضاحكة :

— سنحيل الماء إلى « شربات » ! . .

ولم تدع مظهراً من مظاهر النزق ، والمرح الطلق ، والخلاعة إلا مارسته . . ولم تترك لوناً من ألوان الوجد والهوى إلا عرضته على « دون جوزيه » . . وعندما تمنى أن يراها ترقص أمامه ، لم يثنها عن تلبية رغبته أنها لم تكن تحمل « الصاجات » معها ، بل تلفتت حولها ، حتى وقع بصرها على طبق من الفخار ، من أطباق العجوز ، فأقبلت عليه . . وفى غير تورع حطمته ، وتناولت شقفتين منه فى كل يد ، استعاضة عن « الصاجات » ، وتحولت ترقص رقصة « الرومالى » البوهيمية ، وهى تصفق الشقفات فتحدث بها رنيناً كأنه اصطفاق الأبنوس والعاج . . قط لم أر فى حياتى رفيقة تملأ الوقت حركة ، وتفعم النفس بهجة ، مثلها ! »

و غمرة اللهو والنشوة ، تناهت إليه دقات الطبول تدعو الجنود إلى ثكناتهم . . وهم « دون جوزيه » بالرحيل محسوراً ، ولكن « كارمن »

تشبثت به ، وتعلقت بعنقه . . وحاول أن يصد نداء النزوات ، ليلبى دعوة الواجب ، ولكن الغانية الغاوية أنذرته بقطيعة . . فإما أن يبقى ، وإما ذهاب بلا رجعة ! . .

وخفق قلبه المتيم فرقاً من الإنذار ، فبقى . . وضاعت دقات الطبل فى غمرة النشوة والهوى . . واطمأنت « كارمن » إلى أنه غدا لها ، وملكها ، فغنت له كما لم ير غانية تغنى فى حياته ، ورقصت . . وأذاقته من ألوان الغرام والمتعة ما ابتاعت به قلبه وعقله وروحه . . حتى إذا كان الصباح ، كانت « كارمن » البادئة إلى فض اللقاء ، فقالت له فى دلال :

— ها . . أترانى قد جزيتك عن تضحيتك يا فتاى ؟ . .

وكانت ترمى إلى الذلة والصغار اللذين عاناهما إذ مكنها من الهرب يوم كانت تحت حراسته . . وكأنما أبت أن تسلم له بأن له حقاً عليها ، فشاءت أن تبقيه بين مد وجزر ، لذلك استأنفت قائلة :

« إننى — وفق شرعتنا — غير مدينة إليك بشىء ، لأنك لست منا . . ولكنك شاب جميل ، استهوتنى ملاحتك . . إننا الآن صنوان متكافئان ، لا يدين أحدنا صاحبه بشىء ، ولكن ، واها لك يا صديقى ! . . ما أسعدك إذ تنجو بجلدك ! . . لقد اعترضت سبيل الشيطان — فليس الشيطان دائماً أسود اللون — ومع ذلك فقد خلصت ولما تدق عنقك . . فأهرع إذن وأشعل شمعة للقديسة التى تتبرك بها ، شكراً وحمداً إذ رعتك . . تعال فودعنى ثانية ، ثم امض لا تلوى على شىء ، ولا تفكر بعد ذلك فى « كارمن » الفاتنة ، وإلا انتهت بك إلى أسوأ مصير . . وإلا زوجتك من أرملة ذات ساقين خشبيتين ! »

وليست الأرملة ذات الساقين الخشبيتين سوى . . المقصلة ! . .

* * *

وجرفت الغواية « دون جوزيه » . . واستسلم للهوى المستبد ، الجبار ،

الذى استعبده . . وباع نفسه قلباً وقالباً للشيطان الذى تجسد « كارمن » ! . .
ثم شرع يدفع الثمن . . سلسلة من إهمال الواجب ، وأعمال الشر ، التى جرّت نكبات حاقت به تباعاً !

* * *

أصبح أداة طيعة ، لينة ، فى يد « كارمن » ، فأغرته على مساعدة المهربين . . وكانت — إذا استيقظ ضميره — أنذرته بالهجر والقطيعة ، فلا يتوانى عن كتم أنفاس ذلك الضمير . . فهو قد يطيق أى عقاب أو هوان إلا قسوة الحرمان . .

ومر المهربون يوماً أما ، وما إن اختفوا عن الأنظار ، حتى وصل ضابط كانت « كارمن » على موعد معه . . وثارت الغيرة فى أعماق « دون جوزيه » . . وكان بينهما نقاش وعراك انتهيا بأن قتل الجندى الضابط . .

هكذا صورت المسرحية النكبة الأولى . . أما رواية « ميريميه » فذكرت أن النكبة الأولى انقضت ذات مساء ، فى البيت العتيق ، فى « كالى ديل كانديليجو » ، بيت العجوز الشمطاء ، خادم الشيطان . . فقد التقى « دون جوزيه » هناك بالضابط الذى نازعه « كارمن » . . واجتاحته غيرة هوجاء ، زادها النقاش هياجاً واحتداماً . . وأبرق السلاح الأبيض . . وفى سورة الغضب ، طعن « دون جوزيه » الضابط طعنة نجلاء . .

ووجد نفسه يجرى فى الطريق على غير هدى ، وقد أعماه الانفعال . . وشيطانه الغاوى — « كارمن » — فى إثره تلاحقه حتى إذا ضمدت له جراحه ، حملته على أن يخلع زيه العسكرى ، ودبرت له السبيل كى يهجر المدينة إلى الجبال ، لينضم إلى رفاقها . .

وإن هى إلا أيام ، حتى صار عضواً فى عصابة من الأشقياء المهربين ، مؤلفة من سبعة أو ثمانية من أعتى الخارجين على القانون ،

تفرقوا فى ثلثين أو ثلاث فى المدن الساحلية الصغيرة ، تحت قيادة شرير صخرى الفؤاد ، ميت الضمير ، يدعى « الدانكيرى » !

وأغرق « دون جوزيه » ضميره فى حمأة الشهوات . . ودفن شرفه العسكرى فى تربة الإثم والفجور . . وأجدى عليه الشر . فكان الخروج على القانون أربح له وأكثر كسباً من خدمة القانون . . فجرى المال بين يديه ، وأصبح يغدق منه الهدايا على « كارمن » . . ولم يعد يشتهى شيئاً من دنياه ، فقد أوتى مالا غدقاً ، وعشيقة لا ينضب معين غوايتها وفتنتها وفجورها . . وكان هذا حسبه من الحياة بعد أن تردى !

واندمج تماماً فى مغامرات التهريب . . وكانت « كارمن » تلعب دور الجاسوس للعصابة ، تتنسم الصفقات ، وتنذرهم بالخطر ، وتسعى بفتنتها لتأمينهم شر السلطات والمسئولين . .

* * *

ويستغل « ميريميه » هذه الفرصة ليعرض ذخيرته من الخبرة بأسبانيا وجبالها . . وليعرض فنوناً من روائع أسلوبه الأدبى ، إذ يصور بقلمه مناظر المعارك الجبلية بكل ما كان يخالطها من قسوة . ووحشية ، وهلع ، ودماء ، فتكاد كلماته تزج بالقارئ زجاً فى وسط هذه المعارك ليشهدها بعينيه ! . . وما أروع تصويره لطريق العصابات . والشراك التى كانوا ينصبونها لمطارديهم ، والفخاخ التى كان يقيمها المطاردون فى سبيلهم للإيقاع بهم . . وكيف كان الأشقياء يختارون أوعر الطريق الجبلية ، فأنت تكاد — لقوة أسلوبه — تغوص معهم فى الوهاد ، وتنزلق على جوانب المرتفعات ، وتتدلى من القنن ، ورصاص المطاردين ينهال كالمطر حولهم ، وأحمالهم تثقلهم ولا يتخلون عنها . .

ثم . . ما أبشع جحود المهربين وقسوة قلوبهم ووحشيتهم فى منظر كهذا :

« وأفلتنا جميعاً عدا « ريمندادو » الذى أصيب برصاصة فى عجزه .. ورميت حملى — من الجوارب القطنية المهربة — وتحولت إلى « ريمندادو » أحاول أن أحمله ، فصاح « جارسيا » ، زوج « كارمن » البشع :

« — ماذا نبغى من وراء عاجز أشل أيها الغبى ! . . أجهز عليه ، ولا تضيع علينا حزمة الجوارب القطنية !

« وصرخت « كارمن » :

« — ألقه عنك ، ودعه ! . .

« وكان الإرهاق قد برح بى ، فلم أملك سوى أن ألقيه فى ظل صخرة . . وإذ ذاك انقض « جارسيا » فأفرغ طبنجته فى وجهه ، وقال :

— ماهر ذكى ذلك الذى يستطيع أن يعرفه بعد الآن !

« هذه هى الحياة « البهيجة » التى انغمست فيها يا سيدى . . »

* * *

ولكن « دون جوزيه » لم يكن قانعاً بما تهبه « كارمن » من نفسها ، وما تغدق عليه من عواطفها . . كان يريد أن يستأثر بها . . يريدها كلها لنفسه . . وكانت نورية من الغجر . . بوهيمية ، لا تحب القيود ، وإنما تقدس الحرية . . كانت كالنحلة لا يمكن أن تكتفى بزهرة واحدة ، بل إن لذتها وحياتها فى التنقل من زهرة إلى أخرى . .

وكانت فى تنقلها تحط عليه فى النهاية ، فتؤثره بأشهى فنون الغرام ، دون أن تقوى على إطفاء نيران غيرته المتأججة . .

تعرفت بإنجليزى راح يغمرها بهداياه ، ويتودد إليها على مرأى من « دون جوزيه » . .

ويستغل « ميريميه » المناسبة ليبث فى القصة شيئاً من الترويح . . إذ يجمع بين الثلاثة — « دون جوزيه » و« كارمن » والإنجليزى — فى بيت هذا الأخير ، وقد راحت الغانية تتقلب فى الحرير ، متخذة أبهى

زينتها ، وقد ثبتت فى شعرها مشطاً ذهبياً . ويستشيط « دون جوزيه » غيرة فيروح يحدثها فى غيظ وغضب ، وهى تحاوره فى سخرية ودلال ، وتطفق تضحك حتى يكاد جنباها ينفجران . . والضابط الإنجليزى يرقب المنظر دون أن يفقه شيئاً . .

ولكن الضحك لا يلبث أن ينتهى إلى أسوأ نهاية . .

* * *

عاد « دون جوزيه » إلى المعسكر ، وهو يطوى جوانحه على أساه . .

وفى المساء ، جلس يلعب الورق مع زملائه ؛ فاختلف مع « جارسيا » ، زوج الغانية . وتطور الخلاف واحتد . وفى سورة الغضب ، لم يتورع « دون جوزيه » عن قتل غريمه . . فإن من قتل مرة ، يسهل عليه القتل فى كل مرة !

وكانت العصابة قد دبرت للضابط الإنجليزى كميناً فى الجبال ، اتفق على أن تستدرجه إليه « كارمن » . . فلما كان الصباح التالى ، أقبلت النورية الحسناء الغادرة مع الضابط واثنين من المكاريين يسوقان بغليهما ، وخادم . .

وكان « دون جوزيه » يشعر أن أجيج غيرته لن يطفأ إلا بالدم . . دم الإنجليزى ! . . لذلك قال لزعيم العصابة « الدانكيرى » :

— دع لى الإنجليزى أتول أمره . . وما عليك إلا أن ترهب مرافقيه ، فهم جميعاً غير مسلحين !

ولكن الإنجليزى كان قوياً ، حتى لقد كاد يقتل « دون جوزيه » ، لولا أن بادرت « كارمن » فشلت حراك ذراعه ، إذ كسرتها . . وكانت العملية بعد ذلك من أسهل العمليات ، فسرعان ما أجهز « دون جوزيه » على الضحية !

وتم له الفوز . . الفوز بالغاوية الشيطانية ، فاستردها ، وظن أنها قد

غدت ملك يديه ، وأنه غدا سيدها المطلق . .

وكانت أولى كلماته لها . أن « بشرها ! » بأنها صارت أرملة ! . .

ولكن السيادة التى كان يطمع بها لم تتحقق . . فما كان لبوهيمية أن تتخلى عن حريتها ونزواتها . .

واستمر الشجار والشقاق بينهما ، وقد أخذ الموقف يزداد استفحالا على مر الأيام . . وكلما اشتد أوار غيرة «دون جوزيه» ، تفاقمت السخيمة بين العشيقين ! . . وكان الشجار يطلق لسانيهما بأشياء تغوص فى قلبيهما فتحوطهما وتغير من صفائهما . . وهكذا ، لم يعد العاشقان كما كانا من قبل ، بل دب بينهما دبيب السأم والشر . . السأم من ناحية « كارمن » ، والشر من ناحية « دون جوزيه » . .

* * *

وتصيدت « كارمن » عشيقاً جديداً ، كان من مصارعى الثيران . . فلم تعد تتحدث إلا عن مصارعة الثيران . وعن « البطل لوكا » ، والجواد الذى يمتطيه ، وعدد خيوط القصب التى تزين سترته ، وعدد الجولات المظفرة التى انتصر فيها . .

وكان من الطبيعى أن يهتاج الحب الجديد « دون جوزيه » ، وأن يكون وقوداً لمشاجرات شديدة ، ومشاحنات مستعرة . .

وفى ذات يوم ، تسعى « كارمن » إلى « دون جوزيه » ، أبهج ما تكون مظهراً ، وأكثر ما تكون مرحاً ، فتنبئه بأنها ساعية إلى « قرطبة » ، حيث كان ثمة مهرجان كبير ، عسى أن تنشل بعض أكياس النقود ، أو تبتز مال بعض الموثرين . .

ولندع « دن جوزيه » يقص الواقعة بنفسه :

وما إن خلوت إلى نفسى حتى وجدتنى أفكر فى ذلك المهرجان ، وفى التغير الذى طرأ على « كارمن » . . ثم ساقت الصدف إلىّ فلاحاً

ذكر لى أن ثمة حفلة لمصارعة الثيران . وإذ ذاك ، اندفع الدم يغلى فى شرايينى ، واندفعت كالمجنون نحو حلبة المصارعة » .

ولكنه وصل فى نهاية الحفلة ، وقد أثخن الثور غريمه بالجراح . .

وطفق يبحث عن « كارمن » ، فلم يعثر لها على أثر . .

وفى حوالى الساعة الثانية صباحاً ، جاءت إلى البيت . . نفس البيت الذى صحبت إليه « ميريميه » لتقرأ له طالعه . .

وفوجئت بدون جوزيه وقد جثم ينتظرها . .

ولم يطل بهما الحديث ، فقد بادرها قائلا : « تعالى معى ! »

فلم تعارض ، ولم تتمنع ، بل قالت : « حسناً . . هيا بنا ! »

وأردفها خلفه على جواده ، وانطلقا ، وهى لا تدرى وجهتهما . . حتى إذا كان الفجر ، عرجا على فندق صغير بين التلال . .

وقال لها إذ انفرد معها :

— اسمعى . . إننى على استعداد لأن أنسى كل شىء ، فلا أذكر كلمة لك عن الماضى . . ولست أطالبك بأكثر من أن تقسمى لى على أمر واحد . . أن تصحبينى إلى أمريكا ، فنعيش معاً هناك فى سلام وطمأنينة .

وأجابته فى صوت مبحوح :

— لا . . لن أذهب إلى أمريكا ، فأنا قانعة راضية بحياتى هنا . .

— لعل مبعث ذلك أنك هنا قريبة من « لوكا » . . ولكن ، ثقى تماماً أنه سيظل ضعيفاً أشوه ، ولو شفى من جراحه . وحتى إذا عوفى وتعافى ، فلماذا أشتجر معه؟ .. لقد ملمت قتل عشاقك جميعاً ، ولذا فلسوف أقتلك أنت فى هذه المرة !

* * *

ويمضى الشقى فى اعترافه الأخير لميريميه :

« وتطلعت إلىّ بعينيها الواسعتين ، بنظرات ثابتة ، ثم قالت :
« — لقد كنت دائماً أتوقع أن تقتلنى . . لقد صادفت عند باب دارى وأنا أغادرها — قبيل أن ألقاك للمرة الأولى — قسًّا . .
« والشيطان عادة يتشاءم من القس ويتطير من رجل الدين ! . .
« واستأنفت قائلة :
« — والليلة ؟ ! . . ألم تلاحظ شيئاً ونحن نبرح « قرطبة » . . لقد انطلق أرنب جبلى يجتاز الطريق ، ماراً بين أقدام جوادك . . إنها القسمة . . والقدر المكتوب ! »

* * *

وخلفها وسعى إلى صومعة راهب على مقربة ، فقال له :
— هل لك يا أبت فى أن تصلى من أجل روح قد لا تلبث أن تذهب إلى بارئها ؟

فتطلع إليه الراهب يتأمله بنظرات حادة وقال : « أجل ! »
« وغادرت الصومعة ، فاستلقيت على الأعشاب ، حتى سمعت دقات الناقوس ، تؤذن بانتهاء الصلاة . وإذ ذاك عدت إلى الفندق ، وأنا أمنى نفسى بأن تكون « كارمن » قد فرت ! . . أجل ، كنت أتمنى أن تفر . . وكان بوسعها أن تستولى على جوادى وتنطلق عليه . .
« ولكنى وجدتها باقية فى الفندق . . إذ لم تشأ أن يقال يوماً إننى أخفتها وأرهبتها ! »

وكانت — إذ عاد إلى الفندق — مستغرقة فى إحدى عمليات الشعوذة السحرية ، حتى إنها لم تفطن إلى دخوله . . كانت تحدق فى وعاء كبير به ماء ، وقد صبت فيه بعض القصدير المصهور . . حتى إذا تجمد إلى قطع ، راحت تلتقطها قطعة بعد أخرى ، فتديرها فى كل اتجاه ، بشكل ينذر بالرهبة والشر . .

وهكذا يسير «ميريميه» رويداً بالقصة نحو النهاية ، فى خطى منتظمة على نسق المآسى الإغريقية القديمة ، بحيث تبدو النهاية وكأنها المصير الذى كان محتوماً ، فلا سبيل لمصير سواه . . وبحيث تبدو وقائع القصة ، وكأنها حدثت لأنه كان لابد أن تحدث ! . . فلا مغامرات مصطنعة ، ولا مفاجآت مفتعلة ، ولا مواقف تشوبها المغالاة . . بل اتزان ، وتؤدة ، وجو المأساة يكفهر تدريجياً . . بعين الأسلوب الذى كان « ميريميه » يغبط الكاتب الروسى « بوشكين » عليه .

وهذا ما يميز قصة « ميريميه » عن المسرحية التى أعدها « بيزيه » للأوبرا . .

فى هذه تقتضب الحوادث ، بحيث تدعو إلى خلق شىء من المفاجأة ، وشىء من الاصطناع فى تطور القصة . .

وفى علاقة « كارمن » بمصارع الثيران ، اختلاف كبير . . فعلى المسرح ، نجد أن « كارمن » تعجب بالمصارع « جريرو » ، وهى تشهده ، وتلقى شباكها عليه ، فما إن ينتصر ، حتى يلقى عند قدميها بوشاحه الأحمر . . فتحاول اللحاق به — إذ يغادر الحلبة مظفراً — ولكن « دون جوزيه » يعترض طريقها ، يسائلها عن مقصدها ، ويسألها أن تصحبه ، ولكنها تجيب بالرفض . . ويقول فى وعيد :

— قلت لك اصحبينى إلى هذه الطريق المقفرة لحظة بعيداً عن الأنظار ، وإلا ضربتك وجررتك من شعرك على مشهد من الملأ . . لقد جئت أبحث عنك ، إذ قد حجزت مكانين على الباخرة ، وسنرحل غداً إلى أمريكا . .

— ولكنى لن أسافر يا « دون جوزيه » .

— ألم تعدينى ؟ . . لقد نفذت ما وعدتك به .

وكان وعده أن يقضى على الإنجليزى وعلى زوجها ، وأن ينجح فى تهريب كمية ضخمة من البضائع . .

وتقول إذ تسمع نبأ مصرع زوجها :

— وددت لو شهدت الصراع . . إنه قتل من كان أقوى منك وأمهر ، ولكن أجله حان . . كما سيحين أجلك !

— وأجلك أنت الأخرى ، إذا نكثت باتفاقنا !

فتضحك ، وتقول :

— رأيت فى قدح القهوة أننا سنموت معاً . . ولعل اليوم يومنا !

وتحولت ترقص وهى تدق « صاجاتها » فى خلاعة ، فانتزع « الصاجات » فى عنف أوجعها ، وعاد يسألها أن ترحل معه . . ولكنها أجابته :

— لن ألبث أن ألحق بك . .

— لعلك تبغين أن ترى « جريرو » أولا . .

— إننى أحب أن أكون حرة فى كل ما أفعل . . ولست أقبل أن أأتمر بأمر إنسان . . فإن أبيت إلا أن تضايقنى سعيت إلى من يلحقك بزوجى . .

وينذرها . . ثم يهددها ، فتقول :

— كنت أتوقع دائماً أنك ستقتلنى . .

* * *

ويتوسل إليها أن تتبعه ، وإلا نفد صبره . . ويثير الغيظ والحب كوامن شجونه ، فيبكى ، وإذ ذاك تقول :

— أتبكى كالبنات ؟ . . يا لك من جبان ! . . لن أعاشرك بعد اليوم ، فأنا لم أعد أحبك . . وواهاً لك إن كنت مقيماً على هواى !

ويذكرها بما أقدم عليه من تضحيات فى سبيلها ، ولكنه تصيح :

— لست أريد أن أكلف نفسى عناء اصطناع الكذب . . لقد انتهت علاقتنا . . ولك أن تقتلنى إذا شئت ، ولكن « كارمن » ستظل إلى الأبد حرة . . لم أعد أحبك ، وإنى لأمقت نفسى إذ أحببتك يوماً

أكثر من كل شيء !

وتلقى بخاتم كان قد أهداها إياه، وتطؤه فتدفنه فى التراب بغيظ وثورة ، وهى تقول :

ــ لن أعاشرك . ولن أكون لك إلا بعد أن أصير جثة هامدة . . فإذا اشتهيتنى فاقتلنى . . اقتلنى ! . . ها هوذا قلبى ينبض ! . . اضرب هنا ! . . اطعن . . اطعن ! . .

ويقتلها ، ثم يبكيها !

* * *

أما « ميريميه » فقد سلك إلى النهاية عينها سبيلا آخر ، زاد جو المأساة إحكاماً ودقة . .

عاد الشقى إلى الفندق بعد أن سأل الراهب أن يصلى من أجل « كارمن » ، كما ذكرنا . . وكان حبه يقوى أحياناً على غضبه ، فتمنى لو أنه لا يجدها فى الفندق . . تمنى لو أنها هربت حتى لا ينفذ وعيده فيها ويقتلها . .

ولكنها كانت باقية فى ارتقابه ، غير حافلة بالمصير الذى كان يرتقبها . . كانت ككل أفراد ذلك الشعب الهائم على وجهه فى بطاح الأرض ، الموزع بين البلاد ــ شعب الغور ، أو الغجر ــ تؤمن بالقدر ، وبأن خطوات الإنسان فى الحياة مقدورة له ، مفروضة عليه . . وإذا كانت الدلائل قد نمت عن أنها ستلقى حتفها قتيلة بيد الشخص الذى أحبته ثم ملته . . فليكن للقدر ما شاء !

ويمضى « ميريميه » يسجل بقية قصة « دون جوزيه » :

« وبلغنا بقعة ضيقة منعزلة بين التلال ، فأوقفت جوادى . .

« وقالت وهى تقفز إلى الأرض :

« ــ أهذا هو المكان ؟

« ثم خلعت وشاحها فألقته أرضاً عند قدميها ، ووقفت جامدة لا تحير حراكاً ، وقد اعتمدت بإحدى يديها على خاصرتها . . وراحت ترمقنى ، لا تحول عنى بصرها . .

« وارتميت على قدميها . . وأمسكت بيديها أبللهما بدموعى . . عرضت عليها كل شىء . . كل شىء يا سيدى . . كل شىء فى سبيل أن تحبنى ثانية . . ولكنها هتفت :

« — أحبك ثانية ؟ . . ليس هذا فى طوقى ! . . أعيش معك ؟ . . أعاشرك ؟ . . لا ، لن أفعل !

« واجتاحنى غضب جامح ، فاستللت سكينى . . وكنت أرجو أن أن تفزع وتخاف ، فتناشدنى الرحمة . . ولكن تلك المرأة كانت شيطاناً مريداً . . وصحت :

« — إننى أسائلك للمرة الأخيرة . . هل تمكثين معى ؟

« ولكنها أجابت فى إصرار :

« — لا ! . . لا ! . . لا !

« وضربت الأرض بقدمها فى عناد . . ثم انتزعت من حول إصبعها خاتماً كنت أهديتها إياه ، فألقته بين الأعشاب النامية فى غابة إلى جوارنا . .

« وطعنتها مرتين ، بسكين « جارسيا » — إذ كنت قد استوليت عليها ، بعد أن كسر نصل سكينى — وعند الطعنة الثانية ، هوت إلى الأرض فى سكون . .

« لشد ما يخيل إلىّ أننى لا أزال أتمثل عينيها السوداوين الواسعتين ، تتطلعان نحوى . . ثم غشيهما غيام ، وانطبق جفناهما . .

« وظللت ساعة مرتمياً إلى جوار جثتها محزوناً ، مكلوم الفؤاد . . ثم تذكرت أن « كارمن » كثيراً ما قالت لى إنها كانت تود أن تدفن فى

غابة ، فحفرت لها بسكينى قبراً ، وواريتها جوفه . .

« وظللت طويلا أبحث عن الخاتم الذى طوّحت به بين الأعشاب ، حتى وجدته فى النهاية ، فوضعته إلى جوارها فى القبر ، مع صليب صغير .. ولعلى أخطأت !

« وما لبثت أن امتطيت جوادى ، وحثثته لينطلق بى إلى " قرطبة " ، حيث أسلمت نفسى لأقرب مركز للشرطة » !

وبمثل هذا التسلسل البسيط ، السهل ، الخالى من الافتعال ، المصوغ فى أسلوب سلس . . يروى « ميريميه » القصة ، ويختمها . . ولكن ، بعد أن تكون قد انطبعت فى ذهن القارئ ، فلا سبيل له إلى نسيانها . .

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

١ — كوخ العم توم : هاريت بيتشرستو . . . ١٠

٢ — هى : سير هـ . رايدر هجارد . . ٤١

٣ — غادة الكاميليا : ألكسندر دوما « الابن » . . ٨٨

٤ — كارمن : بروسبير ميريميه . . . ١٠٦

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

وفى سلسلة **اقرأ**

المزيد فى مثل هذا الموضوع

● عشرة من الخالدين	للأستاذ إبراهيم المصرى
● تشيخوف	للأستاذ نجاتى صدقى
● تولستوى	للأستاذ حسن محمود
● برنارد شو	للأستاذ عباس محمود
● جان جاك روسو	للدكتور محمد سامى الدهان
● فيكتور هوجو	للدكتور جورج زايد
● قصص من جوته	للدكتور عبد الغفار مكاوى
● لمحات من الأدب الروسى	للأستاذ ماهر نسيم
● بايرون	للسيدة أمينة السعيد
● شكسبير	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
● ديستويفسكى	للأستاذ حسن محمود

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة

مجموعة (أولادنا)

قصص عالمية تنعم بمطالعتها الناشئة فى جميع أقطار العالم .

صدر منها :

١ — عمرون شاه
٢ — مملكة السحر
٣ — كريم الدين البغدادى
٤ — آلة الزمان
٥ — الأمير والفقير
٦ — كتاب الأدغال
٧ — بينوكيو
٨ — نبوءة المنجم
٩ — روبن هود
١٠ — دون كيشوت
١١ — أيفنهو
١٢ — جزيرة الكنز
١٣ — كنوز الملك سليمان
١٤ — سجين زندا
١٥ — الزنبقة السوداء
١٦ — مون فليت
١٧ — مقبرة الأفيال
١٨ — الربان بلود
١٩ — تيودورا
٢٠ — أوليفر تويست
٢١ — دافيد كوبرفيلد
٢٢ — فى مهب الريح
٢٣ — الفخ الذهبي

(ثمن النسخة من كل كتاب ١٥ قرشاً)

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة

مجموعة (أشهر القصص)

مجموعة خصبة الخيال حافلة بالمغامرات الغريبة المدهشة .

١ ــ روبنسن كروزو	١٥ قرشاً
٢ ــ جلفر فى بلاد الأقزام	٢٠ قرشاً
٣ ــ جلفر فى بلاد العمالقة	٢٢ قرشاً
٤ ــ جلفر فى الجزيرة الطيارة	١٥ قرشاً
٥ ــ جلفر فى جزيرة الجياد الناطقة	٢٨ قرشاً

لوسيون

قسمة

بعد

الحلاقة

يرطب البشرة
ويمنع الالتهابات

RESMA

صالتا العرض والبيع : ٢٤ شارع طلعت حرب (سليمان باشا) مدخل سينما راديو بالقاهرة
١٧ طريق الحرية بالاسكندرية